

## الفصل السادس

### كتابات ابن أبي طي عن الدولة الأيوبية في مصر واليمن والمغرب

أولاً: كتابات ابن أبي طي عن الدولة الأيوبية في مصر:

نواصل في هذا الفصل دراسة كتابات ابن أبي طي عن سيرة صلاح الدين التي أوردتها له «أبو شامة»، كما حفظ «ابن كثير» بعض كتابات ابن أبي طي التي اعتمدنا عليها أيضاً في هذا الفصل. وفيه تناول ابن أبي طي تاريخ حكم صلاح الدين في مصر في الفترة التي أعقبت سقوط الخلافة الفاطمية في عام ٥٦٧ / ١١٧١ م، والتي كان يحكم فيها مصر - «رسمياً» - بصفته نائباً عن نور الدين محمود، واستمرت هذه الفترة حتى وفاة نور الدين محمود في عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م، ثم استقل صلاح الدين بعد ذلك بحكم مصر، وكان قد عمل بعد سقوط الخلافة الفاطمية على توسيع رقعة أملاك الدولة الأيوبية في مصر، فوصلت جيوشه إلى النوبة، وقد اتسمت كتاباته عن تلك الأحداث بالتميز لما أوردته من تفاصيل مهمة انفرد بذكر الكثير منها.

سيطرة تورانشاه بن أيوب على قلعة إبريم ببلاد النوبة:

بدأت فكرة غزو بلاد النوبة في فترة خلافة عثمان بن عفان (٢٣ - ٣٥ هـ / ٦٤٤ - ٦٥٦ م)، وذلك لدعوة أهلها إلى الإسلام، وقاد الغزو «عبد الله بن سعد ابن أبي السرح» في عام ٣١ هـ / ٦٥١ م، وخاض معهم قتالاً شديداً، ولم يتمكن من فتحها، وانتهى إلى عقد هدنة معهم، تقضى بإرسال مصر الحبوب من قمح وعدس، وفي المقابل ترسل النوبة أربعمئة رأس من العبيد في كل عام<sup>(١)</sup>. أما بالنسبة للأسباب التي دعت إلى غزو «شمس

(١) الكندي: الولاة والقضاة، ص ١٢؛ ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٧٠، ج ٥، ص ٣٠٩؛ حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج ١، ص ٢٦٦.

الدولة تورانشاه بن أيوب» النوبة في عام ٥٦٨ هـ / ١١٧٣ م، فقد أرجع «ابن الأثير» سبب ذلك إلى طبيعة العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين محمود في ذلك الوقت، وأوضح أن صلاح الدين اهتم بإضافة المزيد من الفتوحات - في النوبة واليمن - لتأمين مركزه خاصة إذا نفذ نور الدين محمود ما كان يفكر به بشأن غزو مصر، وعجز عندئذ صلاح الدين وقواته عن إقصائه عنها، فيتنقلوا إلى هذه البلاد<sup>(١)</sup>.

وقد أورد ابن أبي طي رأياً آخر انفرد به، أرجع فيه سبب الغزو إلى أسباب مباشرة تتعلق بالنوبة؛ فأوضح انه خرج منها في ذلك الوقت أعداد كبيرة من السودان والعبيد،

وقاموا بالهجوم على أسوان، فاستنجد والى أسوان بصلاح الدين، فأمدته لذلك بالقوات. فقال: «{وفي هذه السنة}»<sup>(٢)</sup> اجتمع السودان والعبيد من بلاد «النوبة»<sup>(٣)</sup> وخرجوا في أمم عظيمة قاصدين ملك بلاد مصر وصاروا إلى أعمال الصعيد، وصمموا على قصد «أسوان» وحصارها، ونهب قراها. وكان بها الأمير «كنز الدولة»<sup>(٤)</sup>، فأنفذ يعلم الملك الناصر وطلب منه نجدة، فأنفذ قطعة من جيشه مع «الشجاع البعلبكي». فلما وصل إلى أسوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن أخرجوا أرضها؛ فأتبعهم الشجاع والكنز، فجرت حرب عظيمة قتل فيها من الفريقين عالم عظيم. ورجع الشجاع إلى القاهرة<sup>(٥)</sup>، وأخبر بفعال

(١) الكامل، ج ٩، ص ١١٨. وانظر أيضا: ابن سعيد: النجوم الزاهرة، ١٨٧-١٨٨؛ ابن خلدون:

تاريخه، ج ٥، ص ٢٨٦-٢٨٧؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٢٧٦.

(٢) في طبعة «دار الجيل»: «وفيها». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٠٨).

(٣) التوبة: بلاد واسعة في آخر جنوب مصر علي ضفتي النيل، وقاعدتها مدينة دنقلة (ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٠٩؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٢٧٥).

(٤) كنز الدولة: لقب منحه الخليفة الحاكم بأمر الله لأمير أسوان «أبي المكارم هبة الله» عندما ظفر بالناظر «أبي ركوة» الفار إلى بلاده في عام ٣٩٧ هـ / ١٠٠٦ م. (ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٦، هامش (٢)؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٨٣).

(٥) اتفق المقرئ مع رأي ابن أبي طي عن أسباب غزو النوبة، وتطابقت روايته مع ما أورده ابن أبي طي حتى هذا الجزء. (السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥٠).

العبيد وتمكنهم من بلاد الصعيد»<sup>(١)</sup>.

فقرر صلاح الدين إنفاذ أخيه الأكبر شمس الدولة تورانشاه لغزو النوبة، وتمكنت قواته - كما أوضح العماد الأصفهاني وابن الأثير - من السيطرة على «قلعة إبريم» بها، وأرجع ابن الأثير سبب ملكه لها إلى أن أهلها لم يكن لهم بقتال العسكر الإسلامي طاقة<sup>(٢)</sup>، وانفرد ابن أبي طي بمزيد من التفاصيل التي توضح سيطرة تورانشاه على القلعة فقال: «فأنفذ الملك الناصر أخاه شمس الدولة في عسكر كثيف، فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة، فسار قاصدا بلادهم وشحن مراكب كثيرة في البحر بالرجال والميرة وأمرها يلحاقه إلى بلاد النوبة. وسار إليها ونزل على قلعة إبريم، وافتتحها بعد ثلاثة أيام، وغنم جميع ما كان فيها من المال، و«الكراع»<sup>(٣)</sup> والميرة وخلص جماعة من الأسرى، وأسّر من وجده فيها وهرب صاحبها»<sup>(٤)</sup>.

ويعد أن تمكن تورانشاه من تحقيق أولى انتصاراته ببلاد النوبة، أرسل إلى صلاح الدين وأخبره بهذا الفتح، فهنا الشاعر «أبو الحسن بن الذروي»<sup>(٥)</sup> صلاح الدين بقصيدة انفرد بها

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣١، طبعة دار الكتب.

(٢) العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص ٦٧-٦٨؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١١٨-١١٩.

وانظر أيضا: ابن سعيد: المصدر السابق، ص ١٨٧-١٨٨؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص

٢٢٩؛ ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٧٩١؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨٧؛

المقريزي: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٥٠.

(٣) الكراع: الخليل والسلاح. (ابن منظور: لسان العرب، ج ١٢، ص ٧٢).

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣١ (طبعة دار الكتب).

(٥) أبو الحسن علي بن مجيب المصري القاضي المعروف بابن الذروي الشاعر: كان شاعرا موصوفا

بالإجادة والإحسان، مدح الخليفة العاضد لدين الله والسلطان صلاح الدين وأخا الملك العادل.

توفي بمصر في عام ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م وكان يبلغ الأربعين عاما. والذروي نسبة إلى ذروي قرية

بصعيد مصر. (العماد الأصفهاني: خريدة القصر، ج ١، شعراء مصر، ص ١٨٧؛ أبو شامة:

الروضتين، ج ٢، ق ١، ص ٨٥؛ ابن سعيد: النجوم، ص ٣٣٣، ٣٣٥؛ ابن خلكان: وفيات

الأعيان، ج ٤، ص ١٤٦؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج ٣، ص ١١٣).

بها ابن أبي طي فقال: «وكتب (توران شاه) إلى السلطان بذلك فأنشد أبو الحسن بن الذروي يهته بفتح إيريم قصيدة منها:

فقدّم العزم فذا مُبْتَسَدَاهِ  
 وانحَبَ ذبول الجيش حتى أرى<sup>(١)</sup>  
 سواك من ألقى عصاه بها  
 عليك بالروم ودع صاحب ال  
 فقد غدت إيريم في ملكه  
 لأبد للنوبة من نوبة  
 تظل من نوبة منسوبة  
 تكسو الغزاة القاطني أرضها  
 سودّ وتحمّر الظبا حولها  
 أولاً، فسُمر<sup>(٢)</sup> يحتميهما القنا  
 جيش منك لا يشسي

يقصر ملك الأرض عن متهاه<sup>(١)</sup>  
 أنجمه طالعة عن دُجَاهِ  
 قناعة لما استقرت نواه<sup>(٣)</sup>  
 باج<sup>(٤)</sup> إذا شئت وتوران شاه  
 تُبرم أمراً فيه كبت العداه  
 تُرضى لسخط الكفر دين الإله  
 لعزيمة كامنة في أنساه  
 مانسجت للحرب أيدي الغزاه  
 كأعين الرمذ بدت للأساه  
 مثل دنان<sup>(٥)</sup> بزلتها السقاء لله  
 إلا بنصل دميت شفرتاه

(١) في طبعة «دار الجليل»: «يقصر عن ملك الأرض متهاه» (المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٩).

(٢) في طبعة «دار الجليل»: «حتى ترى». (المصدر نفسه والصفحة).

(٣) في طبعة «دار الجليل»: «بواه». (المصدر نفسه والصفحة).

(٤) في طبعة «دار الجليل»: «التاج». (المصدر نفسه والصفحة). والمقصود بالباج: «البيجا».

وموطنهم في جنوبي صعيد مصر مما يلي الشرق، فيما بين البحر الأحمر ونهر النيل، وقاعدتهم مدينة «سواكين». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٢ هامش (١) طبعة دار الكتب؛ الفلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٢٧٣-٢٧٤).

(٥) في طبعة «دار الجليل»: «فمر». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٠٩).

(٦) دنان: جمع مفردا الدن، وهو ما عظم من الرواقيد، والراقود إناء خزف مستطيل مقير. والدن طويل الأسفل يُسبغ داخله بالقرار، وقد نهت السيدة عائشة عن الشرب منه. (ابن منظور: لسان العرب، ج ٤، ص ٤١٨، ج ٥، ص ٢٨٣).

ما بين عقبان ولكنهاها خيل وفرسان كمثل البزاه<sup>(١)</sup>  
 أساد حرب فوق أيديهم أساود الطعن، فهم كالحواه  
 تغلدوا الأنهار واستلاموا ال غدران<sup>(٢)</sup> فالنيران تجرى مياه<sup>(٣)</sup>

وبعد سيطرة تورانشاه على القلعة، أناب عليها أحد أتباعه، وظل واليا عليها لمدة عامين، ثم نجح ملك النوبة في إعادتها لسيطرته مرة أخرى، وقد انفرد ابن أبي طي بذكر تطور هذه الأحداث فقال: «ثم رجع شمس الدولة إلى أسوان ثم إلى قوص، وكان في صحبته أمير يقال له إبراهيم الكردي»، فطلب من شمس الدولة قلعة إبريم فأقطعها إياها وأنفذ معه جماعة من الأكراد «البطالين»<sup>(٤)</sup>، فلما حصلوا فيها تفرقوا فرقا. وكانوا يشنون {الغارات}<sup>(٥)</sup> على بلاد النوبة حتى برحوا بهم، واكتسبوا أموالا كثيرة حتى عفت أرزاقهم وكثرت مواشيهم. واتفق أنهم عدّوا إلى جزيرة من بلاد النوبة تعرف بجزيرة {دندان}<sup>(٦)</sup>، ففرق أميرهم إبراهيم وجماعة من أصحابه، ورجع من بقى منهم إلى قلعة إبريم، وأخذوا جميع ما كان فيها وأخلوها بعد مقامهم بها ستين، فعاد النوبة إليها وملوكها<sup>(٧)</sup>»<sup>(٨)</sup>.

(١) البزاة: ضرب من الصقور. (المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٠٢).

(٢) الغدران: جمع مفردة غدير. والغدير هو القطعة من الماء يغادرها السيل أي يتركها. (المصدر نفسه، ج ٤، ص ١١٠).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣١ - ٥٣٢ (طبعة دار الكتب).

(٤) البطالون: من الأجناد والأمرء، هم العاطلون من أعمال الدولة ووظائفها وإقطاعاتها، نتيجة غضب السلطان أو كبر السن، أو اضطرارا إلى الاعتكاف والاختفاء، أو لمجرد حب الانزواء والابتعاد. (المقريزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٧٣، هامش (٤)).

(٥) في طبعة «دار الجليل»: «الغارة». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٠٩).

(٦) في طبعة «دار الجليل»: «زيدان». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٠٩).

(٧) أورد كل من ابن كثير والمقريزي بعض الأحداث التي ذكرها ابن أبي طي في هذا النص، واتفقا معه في نفس الأسلوب. انظر: (ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٧٩١؛ المقريزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥١).

(٨) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٢ - ٥٣٣ (طبعة دار الكتب).

ثم تناول ابن أبي طي العلاقة بين تورانشاه وملك النوبة، وأوضح أن ملك النوبة كان يفضل الصلح معه، بينما أصر تورانشاه على استمرار القتال، وأرسل رسولا من جهته إلى ملك النوبة لتقصي الأحوال هناك، وأمدنا ابن أبي طي بما شاهده الرسول، وتضمن ذلك وصفا لكثير من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والدينية والعمارية، فقال: «وانفذ ملك النوبة رسولا إلى شمس الدولة وهو مقيم بقوص ومعه كتاب فيه طلب الصلح ومع الرسول هدية، عبد وجارية. فكتب له جواب كتابه وأعطاه زوجى نشاب، وقال مالك عندي جواب إلا هذا. وجهز معه رسولا يعرف «بمسعود الحلبي» وأوصاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها، فسار الحلبي مع الرسول حتى وصل «دنقلة»<sup>(١)</sup>، وهى مدينة الملك، قال مسعود: فوجدت بلادا ضيقة ليس لهم زرع إلا الذرة، وعندهم نخل صغار منه إدامهم. ووصف ملكهم بأوصاف منها أن قال: خرج علينا يوما وهو «عريان»<sup>(٢)</sup> قد ركب فرسا عريا وقد التفت في ثوب أطلس وهو أقرع ليس على رأسه شعر؛ قال: فأتيت فسلمت عليه فضحك، وتغاشى وأمر بى أن تكوى يدي فكوى عليها هيئة صليب وأمر لى بقدر خمسين رطلا من الدقيق، ثم صرفنى. قال: وأما دنقلة فليس فيها عمارة إلا دار الملك فقط وباقيةا «أخصاص»<sup>(٣)</sup>.

كان هذا آخر ما وصلنا من كتابات المؤرخ ابن أبي طي عن أحداث سيطرة شمس الدولة تورانشاه بن أيوب على قلعة إبريم ببلاد النوبة، والتطورات التى أعقبت هذا الفتح

(١) دُنْقَلَةٌ: ويقال لها أيضا دُنْقَلَةٌ، وهى مدينة كبيرة فى بلاد النوبة على النيل، وبها منزل الملك، وكان أهلها فى ذلك الوقت فى شظف من العيش، والحبوب عندهم قليلة إلا الذرة، وتكثر عندهم اللحم والألبان والأسماك. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٧٠، ٤٧٨، ج ٥، ص ٣٠٩؛ الفلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٢٧٦).

(٢) كان من عادات أهل النوبة أن يسيروا عراة لا يلبسون ثوبا البتة (ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٠٩).

(٣) أخصاص: جمع مفردة الخصص. وهو بيت من شجر أو قصب. (ابن منظور: لسان العرب، ج ٤، ص ١١٠). اتفقت كتابات المقرئى اتفاقا كبيرا مع رواية ابن أبي طي فى معظم أجزاء هذا النص. انظر: (السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥١). أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٣.

وقد رأينا من خلال مقارنة كتاباته مع غيره من المؤرخين مدى تميز هذه الكتابات لانفراده بذكر الكثير من الأحداث، وقد أشاد الدكتور جمال الدين الشيال بأهمية هذه النصوص، وذكر أنها تضمنت معلومات فريدة ومهمة جدا عن تلك الأحداث، ولهذا نقلها في هامش تحقيقه لكتاب مفرج الكروب لابن واصل<sup>(١)</sup>.

كما لاحظنا أيضا من خلال مقارنة كتابات ابن أبي طي مع كثير من المؤرخين اللاحقين به، اتفاق الأحداث التي ذكرها بعضهم مع ما أورده ابن أبي طي، من ذلك بعض كتابات «ابن كثير» عن ولاية «إبراهيم الكردي» قلعة إبريم، كذلك اتفقت كتابات «المقرئزي» في كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» مع معظم الأحداث التي ذكرها ابن أبي طي، بداية من الأسباب التي علل بها غزو تورانشاه لبلاد النوبة، حتى انتهاء الأحداث بذكر المراسلات بين تورانشاه وملك النوبة، وقد أشرنا إلى هذا الاتفاق في هامش كل صفحة.

#### أحوال مصر الداخلية:

لم تتوافر لدينا الكثير من كتابات ابن أبي طي عن تاريخ حكم صلاح الدين في مصر، ووصلنا من كتاباته بعض الفتن و القلاقل التي واجهت صلاح الدين في مصر، كما وجدنا له معلومة مهمة عن جهود صلاح الدين في تعمير الأسطول المصري، وأخيرا أشار ابن أبي طي إلى اختيار صلاح الدين ابن أخيه «تقي الدين عمر» ليكون نائبا عنه في حكم مصر.

#### القلاقل الداخلية التي واجهت صلاح الدين في مصر:

واجه صلاح الدين العديد من القلاقل الداخلية أثناء حكمه في مصر، منذ أن تولى الوزارة الفاطمية في عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م، واستمرت حتى بعد سقوط الخلافة الفاطمية في عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م، وقد وصلنا من كتابات ابن أبي طي عن هذا الموضوع بعض

(١) ج ١، ص ٢٢٩، هامش (١).

الأمثلة التي توضح ما واجهه صلاح الدين من فتن و قلاقل، والجهود التي قام بها حتى يتخطى هذه الأزمات، وكان من هذه القلاقل:

ظهور تنظيم يهدف إلى إعادة الحكم الفاطمي ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م:

أقام مؤيدو الخلافة الفاطمية تنظيمًا لإعادة الخلافة مرة أخرى بعد عامين من سقوطها، واشترك في هذا التنظيم عدد كبير من كبار المسؤولين السابقين في الخلافة، وقاموا بإعداد كل الأمور اللازمة لإعادة الخلافة، فعينوا - كما ذكر «العماد الأصفهاني وابن الأثير» - الخليفة والوزير والحاجب والداعي والقضاة، كما عملوا على إنجاح هذا الأمر بطلب المساعدة من دول خارجية، فاتصلوا بالصلبيين في «صقلية»، وفي مملكة بيت المقدس في الشام<sup>(١)</sup>. وقد اتفق ابن أبي طي مع العماد الأصفهاني وابن الأثير في ذكر الأحداث الرئيسة في هذا الموضوع، ومع ذلك لم تخل كتاباته من بعض النقاط التي انفرد بها، ومن ذلك ما ذكره عن أسباب قيام هذا التنظيم، والتي ألمح من خلالها إلى أن سوء الحالة الاقتصادية والاجتماعية التي عان منها مؤيدو الخلافة الفاطمية في ظل الحكم السني في عهد صلاح الدين كانت من دوافع هذا التنظيم، فقال: «وفي هذه السنة اجتمع جماعة من دعاة المصريين والعوام وتآمروا فيما بينهم خفية، وبكوا على انقراض دولة المصريين وما صاروا إليه من الذل والفقرة»<sup>(٢)</sup>.

ثم ذكر ابن أبي طي الترتيبات الرئيسة التي قام بها مؤسسو هذا التنظيم، واتفق فيها مع العماد الأصفهاني وابن الأثير فقال: «ثم أجمعوا آراءهم على أن يقيموا خليفة ووزيرا، وتجمعوا هم وجماعة عينوهم من الأمراء وغيرهم وقرروا»<sup>(٣)</sup> أن يكاتبوا الفرنج، وأن

(١) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٢٩؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٢٣؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤٣ - ٢٤٤؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٩٦؛ المقرئ: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٥٣؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٥٧٤.

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٦١ (طبعة دار الكتب).

(٣) ساقطة من طبعة «دار الجليل». (أبو شامة: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٢٠) (طبعة دار الجليل)؛ ج ١، ق ٢، ص ٥٦١ (طبعة دار الكتب).

يشوا بالملك الناصر»<sup>(١)</sup>.

أوضح ابن أبى طى بعد ذلك أنه من الأسباب التى ساعدت صلاح الدين على اكتشاف هذا الأمر كان انضمام «ابن مصال» إلى التنظيم، ثم قيامه بإبلاغ صلاح الدين بما يدبرونه، وقد انفرد ابن أبى طى من بين كثير من المؤرخين بذكر ذلك، فقال: «وآدخلوا معهم فى هذا الأمر «ابن مصال» وأعدوا جماعة من شيعة المصريين ليلة عينوها، وكاتبوا الفرنج بذلك، وقرروا معهم الوصول إليهم فى ذلك الزمان المقرر. فخانهم ابن مصال فيما عاهدهم عليه، ونكث فى اليمين وكفر عنها، وصار إلى الملك الناصر وعرفه بجلبه ما جرى»<sup>(٢)</sup>.

وفى رأينا أن اشتراك ابن مصال فى مثل هذا التنظيم الذى يهدف إلى إعادة الحكم الفاطمى أمر مستبعد، ولا يمكننا أن نعتقد أنه انضم إليه عن اقتناع بأهدافه حيث كان ابن مصال واليا على الإسكندرية فى فترة حكم الخلافة الفاطمية فى مصر، وفى عام ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م وصلت حملة نور الدين محمود الثانية إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه، فقام ابن مصال - كما سبق أن أوضحنا فى الفصل السابق - بتقديم المساعدة العسكرية لقوات شيركوه منذ وصولهم إلى الصعيد وفى أثناء بقاء الحملة فى الإسكندرية بقيادة صلاح الدين، وبالإضافة إلى ذلك فقد نشأت صداقة قوية بين ابن مصال وصلاح الدين، جعلت صلاح الدين يحزن عليه حزنا شديدا عند وفاته فى عام ٥٧٤ هـ / ١١٧٨ م، وقال عنه: «لا يخلف الدهر لى صديقا مثله بعده»<sup>(٣)</sup>.

ومن هنا فمصداقية اشتراك ابن مصال بين أفراد التنظيم أمر غير منطقي، إلا إذا كان أظهر لهم أنه على خلاف مع صلاح الدين، لكى يقوم بعد ذلك بإبلاغه بأمرهم مثلما ذكر

(١) المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٥٦١ (طبعة دار الكتب).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٦١.

(٣) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ١٥٥.

ابن أبي طي في هذا النص.

وعلى أثر إبلاغ ابن مصال صلاح الدين بأمر التنظيم، قام بالتمض على جميع المشتركين فيه، وانفرد ابن أبي طي مرة ثانية بالإشارة إلى بعض الأسباب التي دفعتهم إلى إقامة هذا التنظيم، فقال: «فأحضرهم واحدا واحدا وقرره على هذه الحالة فأقروا واعترفوا، واعتذروا بكونهم قطعت أرزاقهم، وأخذت أموالهم»<sup>(١)</sup>.

وقد أوضح «العماد الأصفهاني» أن صلاح الدين لم يقدم على اتخاذ قراره بشأنهم، وأوكل الأمر إلى الفقهاء الذين أصدروا فتوى بصلبهم<sup>(٢)</sup>، واتفق معه في ذلك ابن أبي طي في هذا الرأي فقال: «فأحضر السلطان العلماء واستفتاهم في أمرهم، فأفتوه بقتلهم و صلبهم ونفيهم، فأمر بصلبهم»<sup>(٣)</sup>، وهناك رأي آخر أورده أيضا «العماد الأصفهاني»، أوضح فيه أن الفقيه الواعظ «زين الدين علي بن نجا»<sup>(٤)</sup>، هو الذي قام بإبلاغ صلاح الدين بأمر التنظيم، وأنه حصل في مقابل ذلك على بعض الأملاك التي كانت تخص أحد المشتركين في التنظيم<sup>(٥)</sup>، وقد عرض ابن أبي طي أيضا هذا الرأي فقال: «وقيل: إن الذي أذاع سرهم «زين الدين علي الواعظ»، وطلب جميع ما «لابن الداعي»<sup>(٦)</sup> من العقار والمال،

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٦١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٦٢ (رواية العماد الأصفهاني).

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٦١.

(٤) هو أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نجا زين الدين الأنصاري الدمشقي الحنبلي الواعظ: ولد بدمشق

في عام ٥٠٨ هـ / ١٤ - ١١١٥ م، درس الفقه والتفسير، وأحب الوعظ واشتغل به؛ أرسله نور

الدين رسولا إلى بغداد في عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م. توفي في مصر في رمضان عام ٥٩٩ هـ /

١٢٠٣ م. (الذهبي: العبر، ج ٣، ص ١٢٦؛ العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ١٣٤٠-٣٤١).

(٥) المصدر السابق، ص ٢٩. وانظر أيضا: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٢٣؛ أبو شامة:

المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٦٠؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤٤-٢٤٥؛

التويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٦٨؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٩٧؛ المقرئ:

المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٥٣-٥٤؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص ١٠٦.

(٦) هو أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل: داعي الدعوة وقاضي القضاة، كان يتمتع بمكانة كبيرة

والمال، فأعطاه جميع ذلك»<sup>(١)</sup>.

وبعد أن كُشف أمر التنظيم أصدر صلاح الدين أوامره بصلب معظم المشاركين فيه، وقد أورد «العماد الأصفهاني» قائمة بأسمائهم، وكان من بينهم القاضي «أبو القاسم هبة الله بن كامل»، وهو أول من صلب<sup>(٢)</sup>، وقد اعتمد ابن أبي طي في جزء كبير من كتاباته على رواية العماد وصرح بذلك، فقال: «وكان الذين صلبوا منهم»<sup>(٣)</sup>، «المفضل ابن كامل»<sup>(٤)</sup> القاضي<sup>(٥)</sup>، «وهو أبو القاسم هبة الله بن عبد الله ابن كامل، قاضي قضاة الديار المصرية زمن الفاطميين، ويلقب بفخر الأمان، فكان أول من صلب فيما قاله «العماد»، وقد كان ينسب إلى فضيلة و أدب، وله شعر رائق فمن ذلك قوله في غلام رقاء:

يارافياً حَزَقَ كُلَّ ثَوْبٍ      و{مارفا} <sup>(٦)</sup> حُبُّهُ اعْتِقَادِي  
عَمَى بِكْفِ الْوَصَالِ تَرْفُو      مَا مَزَقَ الْهَجْرُ مِنْ فَوَادِي<sup>(٧)</sup>

ومن بين الذين تم صلبهم: داعي الدعاة «ابن عبد القوي»، وقد ذكره أيضا العماد الأصفهاني في كتاباته<sup>(٨)</sup>، وعرض ابن أبي طي نفس روايته عنه فقال: «وابن

كبيرة في الخلافة الفاطمية، ولهذا شارك في إنشاء تنظيم يهدف إلى إعادة الخلافة. (العماد الأصفهاني:

خريدة القصر، شعراء مصر، ج ١، ص ١٨٦، ١٨٧).

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٦١.

(٢) خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج ١، ص ١٨٦، ١٨٧.

(٣) اختصر ابن كثير هذه الكلمة أثناء ذكره نص رواية ابن أبي طي، وأضافها أبو شامة في كتابته لهذا

النص. (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٦١، ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٧٩٧).

(٤) في رواية «ابن كثير». «المفضل ابن الكامل». (البداية، ج ١٢، ص ٧٩٧).

(٥) انتهت هنا كتابات أبي شامة التي أوردتها عن ابن أبي طي عن القاضي أبو القاسم هبة الله ابن كامل.

(أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٦١).

(٦) في رواية العماد الأصفهاني: «ويا رشا». (خريدة القصر، شعراء مصر، ج ١، ص ١٨٧. وانظر

أيضا: أبو شامة: الروضتين، ص ٥٧١ (رواية العماد الأصفهاني)).

(٧) ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٩٧.

(٨) سنا البرق، ص ٢٩. وانظر أيضا: أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٦١، ابن واصل

: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤٦-٢٤٧.

عبد القوي»<sup>(١)</sup> «داعى الدعاة، وكان يعلم بدقائق القصر فعوقب ليدل عليها ، فامتنع من ذلك فهاث واندرست»<sup>(٢)</sup>.

ومن بين الذين ذكرهم أيضا «العماد الأصفهاني» القاضي «العوريس»<sup>(٣)</sup>، والكاتب عبد الصمد<sup>(٤)</sup>، وأوردتهم أيضا ابن أبي طي، كما أضاف بعض الأسماء الأخرى، فقال: «العوريس وكان قد تولى {ديوان النظر ثم القضاء بعد ذلك}<sup>(٥)</sup>، و«شبرما» {وهو}<sup>(٦)</sup> كاتب السر، و«عبد الصمد» {الكاتب}<sup>(٧)</sup> {وهو}<sup>(٨)</sup> أحد أمراء المصريين، و«نجاح الحمامي»، و {رجل}<sup>(٩)</sup> {منجم نصراني أرمني كان قال لهم إن أمرهم يتم بطريق علم النجوم»<sup>(١٠)</sup>، ومن أهم أعضاء هذا التنظيم أيضا كان الشاعر «عمارة اليميني»<sup>(١١)</sup>،

(١) انتهت هنا كتابات أبي شامة التي أوردها عن ابن أبي طي عن ابن عبد القوي الداعي. (الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٦١).

(٢) ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٩٧.

(٣) هو القاضي الأعز أبو محمد الحسن بن علي سلامة المعروف بالعوريس: تولى منصب «قضاء القضاة» في مصر في عام ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م، بعد عزل القاضي هبة الله ابن كامل. (المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٧٨).

(٤) سنا البرق، ص ٢٩. وانظر أيضا: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٢٣؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤٣-٢٤٤؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨٧؛ المقريزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥٣-٥٤؛ الحنبلي: المصدر السابق، ص ١٠٦.

(٥) في رواية ابن كثير: «وهو ناظر الديوان، وتولى مع ذلك القضاء» (البداية، ج ١٢، ص ٧٩٧).

(٦) إضافة في رواية «ابن كثير». (المصدر نفسه والصفحة).

(٧) في رواية «أبو شامة»: «القشة». (الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٦١).

(٨) إضافة في رواية «ابن كثير». (البداية، ج ١٢، ص ٧٩٧).

(٩) إضافة في رواية «أبو شامة». (الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٦١).

(١٠) في رواية «ابن كثير». «ومنجم نصراني كان قد بشرهم بأن هذا الأمر يتم بعلم النجوم». (البداية، ج ١٢، ص ٧٩٧).

(١١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٦١؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٩٧.

(١٢) هو الفقيه أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي اليميني الملقب بنجم الدين: نشأ ببلدة «مرطان» نواحي «تامة»، واشتغل بتدريس الفقه بضعة أعوام في مدارس مدينة «زيد» باليمن. بدأت

وأورده العماد الأصفهاني في مقدمة كتاباته عن هذا الموضوع<sup>(١)</sup>، وذكره أيضا ابن أبي طي.

ومن الجدير بالذكر أن نشير هنا إلى أننا كنا قد اعتمدنا في جمع كتابات ابن أبي طي عن هذا الموضوع على كتابات كلا من: «أبي شامة» و«ابن كثير»، وقد أشار أبو شامة في روايته عن ابن أبي طي إلى اشتراك عمارة اليمنى فقط في هذا التنظيم، فقال: «وعُمارة اليمنى الشاعر»<sup>(٢)</sup>.

أما بالنسبة لابن كثير، فقد ذكر أيضا في روايته عن ابن أبي طي اشتراك عمارة اليمنى في هذا التنظيم<sup>(٣)</sup>، ثم أورد بعد ذلك ترجمة لعمارة اليمنى شملت أهم مؤلفاته، وعلاقته مع الخلافة الفاطمية، كما أشار ابن كثير في آخر الترجمة إلى بعض كتابات العماد الأصفهاني عن عمارة اليمنى والتي كان قد ذكرها في كتابه «الخريدة»<sup>(٤)</sup>.

وقد بدت لنا هذه الترجمة اللوهلة الأولى أنها تكملة لنص ابن أبي طي، ولكننا لاحظنا بعد ذلك من خلال إشارة وردت فيها أنها ليست من كتاباته، وإنما تكملة لكتابات ابن كثير عن هذا الموضوع، حيث ذكر كاتب هذه الترجمة: «وكان عمارة شاعرا مطبقا بليغا

---

علاقته مع مصر عندما أرسله أمير مكة رسولا إليها في أعوام ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م و ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م، ثم استقر بها ومدح وزراء وخلفاء الدولة الفاطمية. وكان عمارة فقيها شافعيًا، وشاعرا مجيدا، قتله صلاح الدين في رمضان عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م عندما اشترك في تنظيم لإعادة الحكم الفاطمي في مصر. (عمارة اليمنى: النكت العصرية، ج ١، ص ٣٢، ٤١؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٤٣١-٤٣٥).

(١) سنا البرق، ص ٢٩. وانظر أيضا: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٢٣؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤٣؛ المقرئ: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥٣.

(٢) انتهت هنا كتابات أبي شامة التي أوردها عن ابن أبي طي عن الشاعر عمارة اليمنى. (الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٦١).

(٣) المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٩٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٩٧-٧٩٨.

فصيحا... وله ديوان شعر مشهور، وقد ذكرته في طبقات الشافعية<sup>(١)</sup>، وقد استوقفنا هذا الكتاب لأنه لم يرد ذكره من قبل في قائمة مؤلفات ابن أبي طي هذا من ناحية ومن ناحية أخرى من المستبعد أن يكون لابن أبي طي مؤلف تحدث فيه عن طبقات الشافعية لأنه كان شيعي المذهب، ولهذا صار لدينا اعتقاد شبه مؤكد أن هذا النص ليس لابن أبي طي، ثم صار مؤكدا بعد أن بحثنا بين مؤلفات ابن كثير ووجدنا من بينها كتاب «طبقات الشافعية»<sup>(٢)</sup>.

ثم تناول ابن أبي طي موضوع هذا التنظيم مرة أخرى بشكل أكثر تفصيلا، من خلال عرضه نص رسالة صلاح الدين التي أرسلها إلى الملك العادل نور الدين محمود لإبلاغه بهذا الأمر. وهذه الرسالة من الوثائق المهمة التي حرص ابن أبي طي على تدعيم كتاباته بها، وأضفت على كتاباته أهمية كبيرة.

وكان «العماد الأصفهاني» قد أشار إلى هذه الرسالة، وذكر أنها كتبت بخط «المرتضى بن قريش»، وأنها وصلت إلى دمشق يوم وفاة نور الدين محمود<sup>(٣)</sup>، ومن المحتمل أنه أورد أيضا نص هذه الرسالة ضمن كتابه «البرق الشامي»، ولم ترد إلينا بعد ذلك ضمن كتاباته لقيام «البنداري» باختصارها ضمن اختصاراته الأخرى لكتاب البرق.

وقد أورد ابن واصل أيضا نص هذه الرسالة، وهناك بعض «الملاحظات»<sup>(٤)</sup> التي تشير إلى أنه لم ينقلها من نص ابن أبي طي الذي وصلنا في كتاب الروضتين لأبي شامة، حيث لاحظنا أن ابن واصل أضاف عدة كلمات في نص الرسالة، كذلك علق أبو شامة على كلمة في النص، ولم يشر ابن واصل إلى هذا التعليق، هذا فضلا عن بعض الاختلافات

(١) المصدر نفسه، ص ٧٩٧.

(٢) ابن قاضي شعبة: طبقات الشافعية، ج ٣، ص ٨٦؛ العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦، ص

٢٣١.

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٦٢ (رواية العماد الأصفهاني).

(٤) سنه ضح هذه الملاحظات أثناء عرض نص الرسالة.

الطيفة بين بعض الكلمات، ولهذا فمن الراجح أن ابن واصل اعتمد على مصدر آخر، ومن المحتمل أن يكون نقلها عن العماد الأصفهاني، لأنه ذكر في مقدمة كتاباته ما ذكره العماد عن كاتب الرسالة، ووصولها في وقت وفاة نور الدين محمود<sup>(١)</sup>

ولقد اشتملت الرسالة على الكثير من التفاصيل حول التنظيم، ومن ذلك الجهود التي قام بها أعضاؤه من أجل ضمان نجاحه، وكيفية اكتشاف صلاح الدين لأمرهم .

بدأت الرسالة بمقدمة تبشر بنجاح صلاح الدين في قمع هذا التنظيم . قال ابن أبي طي: «وقد كتب القاضى الفاضل إلى نور الدين كتابا شرح فيه قضية المصلين، فقال بعد مطلع الكتاب:» قصر هذه الخدمة على متجدد سار للإسلام وأهله، وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله في إظهاره على الدين كله، بعد أن كانت لها مقدمات عظيمة إلا أنها أسفرت عن النُجْح، وأوائل كالليلة البهيمه إلا أنها انفرجت عن الصبح؛ فالإسلام ببركاته البادية وفتكاته الماضية قد عاد مستوطنا بعد أن كان غريبا، وضرب في البلاد بجرائه بعد أن كان {الكفر}<sup>(٢)</sup> يتم عليه تخيلا عجيبا؛ إلا أن الله سبحانه أطلع على أمرها من أوله، وأظهر على سرها من مستقبله؛ والملوك يأخذ في ذكر الخبر ويعرض عن ذكر الأثر<sup>(٣)</sup>.

ثم تطرق صلاح الدين إلى الحديث عن دور القوات المصرية وأهل القصر في الترتيب لهذا التنظيم، وأشار إلى ما عاناه منهم من قبل من حيلهم ومكرهم معه . فقال:

«لم {يزل يتوسم}<sup>(٤)</sup> من جند مصر ومن أهل القصر بعد ما أزال الله من بدعتهم، ونقض من عرى دولتهم، وخفض من مرفوع كلمتهم، أنهم أعداء وإن {تعدت}<sup>(٥)</sup> بهم

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤٨ .

(٢) في طبعة «دار الجليل». «الكفر». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٢٠).

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٥٦٢-٥٦٣ (طبعة دار الكتب).

(٤) في نص «ابن واصل». «نزل نتوسم». (مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٤٨).

(٥) في نص «ابن واصل». «قعدت». (المصدر نفسه و الصفحة).

الأيام، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الإسلام. وكان لا يحتقر منهم حقيرا ولا يستبعد منهم شرا كبيرا، وعيونه لمقاصدهم موكلة، وخطراته في التحرز منهم مستعملة، لا تخلو سنة تمر، ولا شهر يكر، من مكر يجتمعون عليه، وفساد يتسرعون إليه، وحيلة يرمونها، ومكيدة يتمونها»<sup>(١)</sup>.

وعرض صلاح الدين بعد ذلك تفاصيل الدور الصليبي في هذا التنظيم، ومن ذلك مراسلات المصريين إلى الملك عموري الأول (١١٦٣ - ١١٧٤ م / ٥٥٨ - ٥٦٩ هـ) في مملكة بيت المقدس الصليبية لطلب معونته، وقد وجدت هذه المراسلات صدى كبير لدى الملك لأهمية مصر بالنسبة لهم، فأرسل إليهم رسولا يدعى «جرج» لترتيب الأمر معهم، وهذا الجزء من الرسالة ذو أهمية كبيرة، حيث أضاف المزيد من تفاصيل الدور الصليبي في هذا التنظيم، وكانت معظم المصادر العربية قد أشارت إليه باختصار، كما ذكرنا من قبل في بداية عرضنا لهذا الموضوع.

قال ابن أبي طي: «وكان أكثر ما يتعلمون به ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة، والمراسلات المتقاطرة، إلى الفرنج خذلهم الله تعالى، التي يوسعون لهم فيها سبل المطامع، و يحملونهم فيها على العظائم والفظائع، ويزينون لهم الإقدام والقدوم، ويخلعون فيها ريقة الإسلام خلع المرتد المخصوص؛ ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن إجابتهم، إلا أنهم لا يقطعون جبل طمعهم على عادتهم، وكان ملك الفرنج كلما سوّلت له نفسه الاستتار في مراسلتهم، والتحيل في مفاوضتهم، سير «جرج» كاتبه رسولا إلينا ظاهرا وإليهم باطنا، عارضا علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا، وعاقدا معهم القبيح الذي يشتمل عليه في وقته علمنا. ولأهل القصر والمصريين في أثناء هذه المدد رسل تتردد، وكتب إلى الفرنج تتجدد. والمولى عالم أن عادة أوليائه المستفاد من أدبه ألا ييسطوا عقابا مؤلما، ولا يعذبوا عذابا محكما؛ وإذا طال لهم الاعتقال ولم ينجع السؤال، أطلق سراحهم، وخلي سبيلهم،

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٦٣.

{فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة} <sup>(١)</sup>، ولا {الرقعة} <sup>(٢)</sup> عليهم إلا قساوة <sup>(٣)</sup>.

وتطرق صلاح الدين بعد ذلك إلى توضيح كيفية اكتشافه لأمر التنظيم، فأوضح أنه علم به من خارج مصر، وبالتحديد من عند الصليبيين أنفسهم، حيث راسله من يثق به منهم، وأعلمه بالهدف الحقيقي من سفارة «جرج» فقام عندئذ بمراقبته، وتبع أخباره من خلال بعض النصارى <sup>(٤)</sup>.

قال ابن أبي طي: «وعند وصول «جرج» في هذه الدفعة الأخيرة رسولا إلينا بزعمه، ورد إلينا كتاب ممن لا نرتاب به من قومه، يذكرون أنه رسول مختله لا رسول مجاملة، وحامل بلية لا حامل هدية؛ فأوهمناه الإغفال عن التيقظ لكل ما يصدر منه وإليه، فتوصل مرة بالخروج ليلا، ومرة بالركوب إلى الكنيسة وغيرها نهارا، إلى الاجتماع بحاشية القصر وخدامه، وبأمراء المصريين وأسبابهم، وجماعة من النصارى واليهود وكلاهم وكتابهم. فدسنا إليهم من طائفتهم من داخلهم، فصار ينقل إلينا أخبارهم، ويرفع إلينا أحوالهم» <sup>(٥)</sup>.

وبعد أن تأكد صلاح الدين - من خلال أعوانه - بأمر هذا التنظيم، قام بالقبض على المتآمرين، وبدأ التحقيق معهم، فاعترفوا له بأشياء أخرى عن التنظيم لم يكن له بها علم من قبل قال ابن أبي طي: «ولما تكاثرت الأقوال وكاد يشهر علمنا بهذه الأحوال، استخرنا الله تعالى و{قبضنا} <sup>(٦)</sup> على جماعة مفسدة، و{طائفة} <sup>(٧)</sup> من هذا الجنس متمردة. قد اشتملت على

(١) أضاف ابن واصل قبل هذه الجملة «وهؤلاء القوم» (مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٤٩).

(٢) في نص «ابن واصل». «الرقعة». (المصدر نفسه والصفحة).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٦٣-٥٦٤.

(٤) تناول «ابن الأثير» في كتاباته ما جاء هنا في الرسالة من معرفة صلاح الدين بحقيقة نوايا رسول الملك عموري الأول من خلال الصليبيين أنفسهم، وأوضح أنه علم بذلك بعد أن كان «زين الدين ابن نجا الواعظ» أبلغه بأمرهم أولا. (الكامل، ج ٩، ص ١٢٣. وانظر أيضا: ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٤٥؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٦٨).

(٥) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٦٤.

(٦) في نص «ابن واصل». «قبضنا». (مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٤٩).

(٧) في نص «ابن واصل». «جماعة». (المصدر نفسه والصفحة).

الاعتقادات المارقة، و السرائر المناققة فكلا أخذ الله بذنبه، فمنهم من أقر طائعا عند إحضاره، و منهم من أقر {بعد} <sup>(١)</sup> ضربه <sup>(٢)</sup>، فانكشفت أمور آخر كانت مكتومة، و نوب غير التى كانت عندنا معلومة، و تقارير مختلفة فى المراد، متفقة فى الفداد <sup>(٣)</sup>.

ثم عرض صلاح الدين تفاصيل الترتيبات التى كان قد أعدها أفراد التنظيم بشأن تعيين الخليفة الفاطمى الجديد والوزير، وأوضح أنه حدث اختلاف فيما بينهم حول هذه الترتيبات. وكان ابن الأثير قد أشار أيضا لهذا الخلاف <sup>(٤)</sup>. قال ابن أبى طى: «ثم ذكر تفصيلا حاصله أنهم عينوا خليفة ووزيرا مختلفين فى ذلك، فمنهم من طلب إقامة رجل كبير السن من بنى عم العاضد، ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد وإن كان صغيرا؛ واختلف هؤلاء فى تعيين واحد من ولدين له. وأما بنو رزيك و{أهل} <sup>(٥)</sup> شاور، فكل منهم أراد الوزارة لبيتهم من غير أن يكون لهم غرض فى تعيين الخليفة» <sup>(٦)</sup>.

ثم أورد صلاح الدين فى رسالته إلى نور الدين محمود الخطة التى وضعها القائمون على التنظيم للاستيلاء على الحكم فى مصر، وأوضح أنهم كانوا قد وجدوا أن وقت خروجه للجهاد فى منطقتى «الكرك والشوبك» مناسباً لتنفيذ هذا المخطط، فراسلوا عندئذ الملك عمورى الأول <sup>(٧)</sup>. قال ابن أبى طى: «وكانوا فيما تقدم، والمملوك على «الكرك»

(١) فى نص «ابن واصل». «عند». (مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٤٩).

(٢) أضاف ابن واصل بعد هذه الكلمة جملة «ولم يقم على إصراره». (المصدر نفسه والصفحة).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٦٤.

(٤) الكامل، ج ٩، ص ١٢٣. وانظر أيضا: ابن خلدون: تاريخه، ج ٥، ص ٢٨٨.

(٥) فى نص «ابن واصل». «بنو». (مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٤٩).

(٦) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٦٤.

(٧) كان صلاح الدين قد خرج لغزو الكرك والشوبك فى شوال عام ٥٦٨ هـ / ١١٧٣ م، حيث كان اتفق مع نور الدين محمود على أن يقوما بالغزو معا، وقيل أيضا إنه خرج للغزو لتأمين طريق القوافل من الشام إلى مصر. (العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص ٦٥؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٢١؛ ابن شداد: النوادر، ص ٤٥؛ المقرئ: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥٠).

و«الشويك» بالعسكر، قد كاتبوهم وقالوا لهم إنه بعيد والفرصة قد أمكنت، فإذا وصل الملك الفرنجي إلى «صدر» أو «أيلة» ثارت حاشية القصر وكافة الجند وطائفة السودان وجموع الأرمن وعامة الإسماعيلية وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة. ولما وصل «جرج» كتبوا إلى الملك الفرنجي أن العساكر متباعدة في نواحي إقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم غلاتهم، وأنه لم يبق في القاهرة إلا بعضهم وإذا بعثت أسطولا إلى بعض الشغور أنهض فلانا من عنده وبقى في البلد وحده، ففعلنا ما تقدم ذكره من الثورة»<sup>(١)</sup>.

ثم أبلغ صلاح الدين نور الدين محمود بما علمه بشأن المساعدات الخارجية الأخرى التي حصل عليها القائمون على التنظيم، وأوضح أنه فضلا عن الوعد الصليبي لهم بمساعدتهم، قام هؤلاء المتآمرون بمراسلة «سنان بن سلمان»<sup>(٢)</sup> زعيم الدعوة الإسماعيلية

(١) الشيعة في الشام، لاتفاقه معهم من ناحية المذهب. وهذا الجزء من الرسالة ذو أهمية كبيرة، لأنه كشف النقاب حول تفاصيل هذا الموضوع، والذي لم تشر إليه كثير من المصادر العربية. قال ابن أبي طي: «وفي أثناء هذه المدة كاتبوا «سنانا» صاحب الحشيشية بأن الدعوة واحدة والكلمة جامعة، و{أن}»<sup>(٣)</sup> ما بين أهلها خلاف إلا فيما لا يفترق به كلمة، و{لا يجب}»<sup>(٤)</sup> به قعود عن نصره؛ واستدعوا منه من {يُتمم}»<sup>(٥)</sup>

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٦٤-٥٦٥.

(٢) هو أبو الحسن سنان بن سلمان الملقب راشد الدين: زعيم الدعوة الإسماعيلية الشيعة في الشام، وعرفت هذه الفرقة بالحشيشية لأن أتباعها كانوا يتعاطون الحشيش، وقد جاء سنان إلي الشام في عهد نور الدين محمود، وظل حاكما في قلاع الإسماعيلية في الشام لمدة ثلاثين عاما خاض خلالها الكثير من المعارك مع نور الدين محمود ومن بعده مع صلاح الدين. توفي في عام ٥٨٨ هـ وقيل في المحرم عام ٥٨٩ هـ / ١١٩٢ م (ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٤٩، هامش (٥)؛ الذهبي: العبر، ج ٣، ص ٩٩؛ أبو المحاسن: النجوم، ج ٦، ص ١١٧).

(٣) في نص «ابن واصل». «أنه». (مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٤٩).

(٤) في نفس النص. «يجب». (المصدر نفسه والصفحة).

(٥) في نفس النص. «يقم». (المصدر نفسه والصفحة).

على المملوك غيلة، {أوبيت له} <sup>(١)</sup> مكيدة وحيلة «والله من ورائهم مُحِيطٌ» <sup>(٢)</sup>. وكان الرسول إليهم عن المصريين خال «ابن قرجلة» المقيم الآن هو وابن أخته عند الفرنج <sup>(٣)</sup>.

وبعد أن انتهى صلاح الدين من عرض كل الجوانب الموضحة لأمر هذا التنظيم، تناول في ختام رسالته عن هذا الموضوع الإجراءات التي اتخذها مع المتآمرين والتي لم تتم إلا بعد سماعه فتوى العلماء بشأنهم. قال ابن أبي طي: «ولما صح الخبر وكان حكم الله أولى ما أخذ به، وأدب الله أمضى فيمن خرج عن أدبه، وتناصرت من أهل العلم الفتاوى، وتوالت من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى، قتل الله بسيف الشرع المطهر جماعة من الغواة الغلاة، الدعاة إلى النار، الحاملين لأنفاسهم وأثقال من أضلوه من الفجّار؛ وشتقوا علي {باب قصورهم}» <sup>(٤)</sup>، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم؛ ووقع التبعية لأتباعهم، وشردت طائفة الإسماعيلية ونفوا، ونودى بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السودان إلى أقصى بلاد الصعيد. فأما مَنْ في القصر فقد وقعت الحوطة عليهم إلى أن ينكشف وجه رأي يمضي فيهم، ولا رأي فوق رأي المولى، والله سبحانه مستخار، وهو المستشار وعنده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده، وعمضى الحدود بتحديدته ورأى المملوك إخراجهم من القصر فإنهم مهما بقوا فيه بقيت مادة لا {تنحسر} <sup>(٥)</sup> الأطماع عنها، فإنه {حباله} <sup>(٦)</sup> للضلال منصوبة، وبيعة للبدع «محموجة» <sup>(٧)</sup>» <sup>(٨)</sup>.

(١) في نفس النص نص. «ويش عليه». (المصدر نفسه والصفحة).

(٢) سورة «البروج» آية ٢٠. (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٦٥، هامش (٣)).

(٣) المصدر نفسه والصفحة (طبعة دار الكتب).

(٤) في طبعة «دار الجليل». «أبواب قصورهم». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٢١)، وكذلك

في نص «ابن واصل». (مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٥٠).

(٥) في طبعة «دار الجليل». «تنحسر». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٢١). وكذلك في نص

ابن واصل. (مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٥٠).

(٦) في نص «ابن واصل». «قبلة». (مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٥٠).

(٧) علق أبو شامة علي هذه الكلمة بقوله: «لعلها محجوبة». (الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٦٥).

(٨) المصدر نفسه والصفحة.

ثم تناول صلاح الدين في نفس رسالته إلى نور الدين محمود موضوعا آخر يتعلق أيضا بنجاحه في قمع فتنة داخلية وقعت في الإسكندرية، قام بها «قديد القفاص» وكان يدعى النسب إلى الفاطميين. قال ابن أبي طي: «ومما يطرف به المولى أن ثغر الإسكندرية على عموم مذهب السنة فيه، أطلع البحث أن فيه داعية خبيثا أمره، محتقرا شخصه، عظيما كفره، يسمى «قديد القفاص»، وأن المذكور مع خموله في الديار المصرية قد فشت في الشام دعوته، وطبقت عقول أهل مصر فتنته، وأن أرباب المعاش {فيه} <sup>(١)</sup> يحملون إليه جزءا من كسبهم، و{النسوان} <sup>(٢)</sup> يعثن إليه شطرا وافية من أموالهن؛ ووجدت في منزله بالإسكندرية عند القبض {له} <sup>(٣)</sup>، والمهجوم {عليه} <sup>(٤)</sup>، كُتِبَ {محرّرة} <sup>(٥)</sup> فيها خلع العذار، و صريح الكفر الذي ما «عنه» <sup>(٦)</sup> اعتذار، ورقاع يخاطب بها فيها ما تقشعر منه الجلود {وكان يدعى النسب إلى أهل القصر، وأنه خرج منه صغيرا ونشأ على الضلالة كبيرا} <sup>(٧)</sup> وبالجملة فقد كفى الإسلام أمره، وحق به مكروه، وصرعه كفره <sup>(٨)</sup> <sup>(٩)</sup>.

وهكذا نجح صلاح الدين في عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م في القضاء على تنظيم كبير كان يهدف إلى إعادة حكم الخلافة الفاطمية مرة ثانية في مصر بعد عامين من سقوطها، كما نجح

- (١) في نص «ابن واصل». «فيها». (مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٥٠).
- (٢) في نص «ابن واصل». «النساء». (المصدر نفسه والصفحة).
- (٣) في نص «ابن واصل». «عليه». (المصدر نفسه والصفحة).
- (٤) في نص «ابن واصل». «إليه». (المصدر نفسه والصفحة).
- (٥) في طبعة «دار الجليل». «بجردة». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٢١). وكذلك في نص «ابن واصل». (مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٥٠).
- (٦) أضاف ابن واصل بعد هذه الكلمة كلمة: «اندفاع». (مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٥٠).
- (٧) هذه الفقرة ساقطة من طبعة «دار الجليل». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٢١) طبعة دار الجليل (ج ١، ق ٢، ص ٥٦٦) طبعة دار الكتب).
- (٨) أشار «المقرئزي» إلى أن القبض عليه كان في خامس عشرين رمضان عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م. السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥٤).
- (٩) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٦٦) طبعة دار الكتب).

في القضاء على فتنة أخرى قامت في ذلك الوقت بالإسكندرية، وقد تميزت كتابات ابن أبي طي عن هذا الموضوع، بذكره لمعظم تفاصيله سواء في كتاباته الخاصة التي اعتمد في كثير منها على رواية المؤرخ العماد الكاتب الأصفهاني، أو في تدعيم كتاباته بعد ذلك بعرضه لوثيقة مهمة أرسلها صلاح الدين إلى الملك العادل نور الدين محمود في دمشق، تضمنت شرحا مهما لأحداث تلك الفتن.

ووصلنا أيضا من كتابات ابن أبي طي أحداث قلائل أخرى داخلية، وقعت أحداثها في صعيد مصر، وقد نجح الملك العادل - أخى صلاح الدين ونائبه في مصر - في قمعها في عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م، وعرفت في المصادر العربية باسم:

نوبة الكنز ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م:

عرض ابن أبي طي مقدمة الأحداث التي سبقت هذه النوبة بمزيد من التفاصيل، وانفرد بذكر تفاصيل تمرد قام به «عباس بن شاذي» في مدينة قوص في الصعيد، وهذه هي المرة الثانية التي يقوم بها بمثل هذه الأعمال، وكان ابن أبي طي قد أورد له أحداثا مشابهة في قوص أيضا في عام ٥٦٥ هـ / ١١٧٠ م، وأوردنا هذه الأحداث في الفصل السابق، وفي عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م عاود عباس بن شاذي هذه الأعمال مرة ثانية ونجح الملك العادل في القضاء عليه وقتله. قال ابن أبي طي: «واتفق أيضا أن خرج بقرية من قرى الصعيد يقال لها «طود»<sup>(١)</sup> رجل يعرف بعباس ابن شاذي، وثار في بلاد قوص ونهبها وخربها، وأخذ أموال ؛ واتصل ذلك «بالمملك العادل سيف الدين أبي بكر ابن أيوب»، وكان السلطان قد استنابه بمصر فجمع له العساكر وأوقع به، وبدد شمله، وفض جموعه وقتله»<sup>(٢)</sup> (٣).

(١) طَوْدٌ: بليدة بالصعيد الأعلى فوق قوص ودون أسوان. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٦ - ٤٧).

(٢) عرض المقرئ في كتاباته نفس رواية ابن أبي طي عن تمرد عباس بن شاذي في قوص. انظر: (السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥٧ - ٥٨).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٠١ - ٦٠٢.

ثم قام والى أسوان الملقب بكنز الدولة بجمع الكثير من العرب و العبيد بالصعيد، وزعم لهم - كما أوضح «العماد الأصفهاني و ابن شداد» - أنه سوف يعيد الدولة الفاطمية إلى حكم مصر و قام بقتل عدد من أمراء صلاح الدين، فخرج «الملك العادل» إلى مدينة طود، و قتل كنز الدولة في صفر ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م، و انتهت بموته دولة الكنز بأسوان<sup>(١)</sup> أما ما أورده ابن أبي طي عن هذه الأحداث، فقد وصلنا منه كما يبدو لنا رواية مختصرة، اتفق فيها مع العماد الأصفهاني، فقال: «ثم قصد يعده كنز الدولة الوالي بأسوان و كان قصد بلد طود، فقتل أكثر عسكره و هرب فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله»<sup>(٢)</sup>.

### جهود صلاح الدين في تعمير الأسطول الحربي المصري:

كان صلاح الدين قد اتجه إلى بلاد الشام بعد وفاة نور الدين محمود في عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م، و ظل مقبلاً بها لمدة عامين، نجح خلالها في ضم العديد من البلاد إلى أملاك الدولة الأيوبية<sup>(٣)</sup>، ثم قرر في عام ٥٧٢ هـ / ٧٦ - ١١٧٧ م العودة إلى مصر لتفقد أحوالها، و خرج في صحبته العماد الأصفهاني، فوصل إلى القاهرة قرب نهاية شهر ربيع الأول فأقام بها بضعة أشهر، ثم غادرها إلى الإسكندرية في الثالث الأخير من شهر شعبان، و صام في الإسكندرية بضعة أيام من شهر رمضان، و في أثناء زيارته للإسكندرية أمر بتعمير الأسطول، ثم عاد إلى القاهرة و أكمل بها شهر رمضان<sup>(٤)</sup>.

(١) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٨٠؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٠؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص ٤٧ - ٤٨؛ ابن كثير المصدر السابق، ج ١٢، ص ٨١٢؛ المقرئزي: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٥٧ - ٥٨؛ الحنبلي: المصدر السابق، ص ١٠٧.

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٢.

(٣) سنوضح تفاصيل ذلك في الفصل الخاص بتوسعات صلاح الدين في الشام.

(٤) المصدر السابق، ص ١١٥، ١٢٠ - ١٢١. و انظر أيضاً: أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٨٩ - ٦٩٠ (رواية العماد)؛ المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٦٣؛ الخطط، ج ٢، ص

وقد انفرد ابن أبي طي بتفاصيل الإشارة التي جاءت في كتابات العماد الأصفهاني عن قيام صلاح الدين بتعمير الأسطول، وأورد في ذلك الكثير من المعلومات المهمة، فذكر الدافع الديني الذي كان يبيغيه صلاح من وراء هذا الأمر، ثم عرض لما قام به من تزويد الأسطول بالسلاح والآلات والقوات. ثم اختياره قائدا له وأوضح الصلاحيات التي منحها له صلاح الدين فقال: «ولما نوى السلطان المقام بالإسكندرية ليصوم فيها، رأى أنه لا يُحِلُّ نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد في المشركين،

ف رأى الأسطول وقد «أخلقت»<sup>(١)</sup> سُفنه و تغيرت آلاته، فأمر بتعمير الأسطول وجمع له من الأخشاب والصُّنَاع أشياء كثيرة. ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات، فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الأسطول إليه، و شحنه بالرجال، وولى فيه أحد أصحابه، وأفرد له إقطاعا مخصوصا وديوانا مفردا، وكتب إلى سائر البلاد يقول، القول قول صاحب الأسطول، وأن لا يُمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه وأمر صاحب الأسطول أن لا يبارح البحر، ويغزى إلى جزائر البحر»<sup>(٢)</sup> (٣).

نيابة تقي الدين عمر في مصر بعد الملك العادل:

كان السلطان صلاح الدين عندما قرر الانتقال إلى بلاد الشام بعد وفاة نور الدين محمود في عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م، قد أناب عنه أخاه الملك العادل في حكم مصر<sup>(٤)</sup>، فظل نائبا عنه حتى عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م، ثم انتقل - كما ذكر العماد الأصفهاني - إلى الشام ليتولى مدينة حلب التي بسط صلاح الدين سيطرته عليها في ذلك العام، فخرج الملك

(١) أخلق الدهر الشيء: أبلاه. (ابن منظور: لسان العرب، ج ٤، ص ١٩٥).

(٢) أورد ابن كثير ملخصا لنص رواية ابن أبي طي عن تعمير صلاح الدين الأسطول الحربي في الإسكندرية. انظر: (البداية، ج ١٢، ص ٨٢٢).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٨٩ - ٦٩٠.

(٤) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٥٠؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٨١٣؛ المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥٨.

العادل من مصر في شهر شعبان حاملاً كل ما يلزمه للاستقرار في الشام، فأخذ معه عائلته وأمواله، والتقى مع أخيه السلطان صلاح الدين عند حصن الكرك أثناء قيامه بحصاره، ثم أناب صلاح الدين في مصر من بعده ابن أخيه الملك المظفر «تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب»، وأرسل معه إلى مصر القاضي الفاضل<sup>(١)</sup>.

وقد أرجع ابن أبي طي في روايته سبب انتقال الملك العادل من مصر إلى الشام إلى حاجة صلاح الدين إلى مشورته الدائمة في كل أموره، لأن بعد المسافة بين مصر والشام كان يؤخر وصول رده على رسائله، وقد دعم ابن أبي طي رأيه هذا بعدة روايات لأشخاص كانوا معاصرين لهذه الأحداث، وحدثوه بها، وهم: قاضي اليمن «جمال الدين»، ووالده «أبو طي النجار». وقد يبدو ابن أبي طي مبالغاً في تعظيم دور الملك العادل في حياة صلاح الدين، ولكنه أورد بعد ذلك في عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٤ م مشاركة العادل السلطان صلاح الدين أثناء اجتماعه مع وفود العديد من الدول<sup>(٢)</sup>.

قال ابن أبي طي: «كان السلطان يعظم الملك العادل ويعمل برأيه في جميع أموره ويتيمّن بمشورته، ولا يُعلم بأنه أشار على السلطان بأمر فخالفه. حدثني قاضي اليمن «جمال الدين» قال: كان السلطان يجمع الأمراء للمشورة، فإن كان العادل حاضراً سمع من رأيه، وإن لم يكن حاضراً لم يقطع أمراً في المهمات حتى يكتبه بجلية الأحوال ثم يسمع رأيه فيها»<sup>(٣)</sup>.

ثم قال: «وحدثني أبي، قال: حدثني جماعة قالوا: كان السلطان ليس له غناء عن العادل ولإعن رأيه. فلما حصل العادل بمصر ويعد عن السلطان هناك صار السلطان

(١) المصدر السابق، ص ٢٣٣. وانظر أيضاً: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٦٤؛ ابن شداد:

المصدر السابق، ص ٦٣؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٦٦ (رواية العماد)؛ ابن

كثير: المصدر السابق، ص ٨٤٦؛ المقرئ: المصدر السابق، ص ٨٢.

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٦٩-١٧٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٦٧.

يتكلف في مكاتبته بالأخبار، ويؤخر الأمور إلى أن يردّ عليه جوابه، فيفوته بذلك كثير من المنافع الحاصلة للدولة وللجهاد، فلما حصر الكرك في هذه السنة كاتبه بالحضور إليه بعياله، وأمواله وجميع أصحابه، وولى مصر تقي الدين<sup>(١)</sup>.

وقد منح السلطان صلاح الدين ابن أخيه «تقي الدين عمر» إقطاعاً في مصر يتضمن عدة بلاد، ذكر منها العماد الأصفهاني «الأعمال الفيومية» و«بوش»<sup>(٢)</sup>، وأضاف ابن أبي طي في روايته بعض البلاد الأخرى، فقال: «وأقطع السلطان تقي الدين الإسكندرية ودمياط وجعل «لخاصة»<sup>(٣)</sup> البحيرة و الفيوم و بوش، ثم عوضه عن بوش سمندود و«خوف رمسيس»<sup>(٤)</sup>»<sup>(٥)</sup>.

وقد كانت ولاية تقي الدين عمر مصر نيابة عن عمه صلاح الدين، آخر ما وصلنا من كتابات ابن أبي طي عن تاريخ مصر الداخلي في عهد صلاح الدين، وقد أمدتنا هذه الكتابات بمزيد من التفاصيل المهمة حول بعض القلاقل الداخلية التي واجهت صلاح الدين في القاهرة والإسكندرية وأسوان، كما أبرزت كتاباته جهود صلاح الدين في تعمير الأسطول الحربي في الإسكندرية، كذلك كانت كتاباته عن أسباب انتقال الملك العادل من مصر إلى الشام ذات طابع منفرد لاعتماده على آراء بعض المعاصرين لتلك الأحداث، وفي المجمل كان لابن أبي طي بصمة واضحة في كل هذه الأحداث ميزت كتاباته، وجاء أسلوبه منفرداً ومستقلاً في كثير من الكتابات، كما سبق أن أوضحنا.

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٦٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٣٤. وانظر أيضاً: المقرئ: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٨٢.

(٣) صبيان الخاص: أو «الخاصكية» كما عرفوا في زمن القلقشندي (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) هم جماعة من أخصاء الخليفة، عددهم نحو خمسمائة (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧٧).

(٤) خوف رمسيس: من أعمال البحيرة. (القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٠٢).

(٥) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٧٠.

## ثانياً: كتابات ابن أبي طي عن تاريخ حكم الدولة الأيوبية في اليمن

(٥٦٩-٥٧٨ هـ / ١١٧٤-١١٨٢ م)

كان شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، أخى الملك الناصر صلاح الدين، قد توجه على رأس حملة لغزو اليمن في عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤، ونجح في بسط سيطرته على معظم بلاده، واستمرت ولايته هناك حتى عام ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م، ثم انتقل في ذلك العام إلى بلاد الشام، ثم إلى مصر، وظل بها حتى توفي في عام ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م، فتولى أخوه «سيف الإسلام طغتكين بن أيوب» حكم اليمن في عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م.

وهذه الموضوعات تركزت حولها الكتابات التي وصلتنا من تاريخ ابن أبي طي عن حكم الدولة الأيوبية في اليمن، وتميزت بعض منها بكثير من التفاصيل التي أنفرد بها.

وقد اعتمدنا في جمع هذه الكتابات على ما أورده أبو شامة من كتاب ابن أبي طي الذي خصصه لدراسة السيرة الصلاحية.

## حملة شمس الدولة تورانشاه إلى اليمن

توافرت لدى تورانشاه العديد من الأسباب التي شجعت على غزو اليمن في عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م، تعلق بعضها بطبيعة شخصيته، والبعض الآخر بما وجدته من مساندة من خارج اليمن ومن داخلها، كما كان غزوها هاما لإضافة أملاك جديدة إلى الدولة الأيوبية وأيضا للحفاظ على هيبة الخلافة العباسية.

فبالنسبة لطبيعة شخصية تورانشاه، فقد أوضح «العماد الأصفهاني» أنه كان قد اشتهر عنه الجود والكرم، وكان دخله في مصر لا يفي بكل احتياجاته، ووجد أن ملكه لليمن

يوفر له ما يحتاجه من المال<sup>(١)</sup>، وقد أيد ابن أبي طي هذا الرأي، واتفق فيه مع العماد الأصفهاني، فقال: «كان سبب خروج شمس الدولة إلى اليمن أنه كان كريما جوادا، وكان إقطاعه بمصر لا يقوم بفتوته، ولا ينهض بمروته»<sup>(٢)</sup>.

كما وجد تورانشاه تشجيعا كبيرا من الشاعر «عمارة اليمني»، وكان مقبيا في مصر في ذلك الوقت، فقام - كما ذكر العماد الأصفهاني وابن الأثير<sup>(٣)</sup> - بدور هام في حثه على غزو اليمن. وأوضح أيضا ابن أبي طي هذا الدور، واتفق معهما في عرضه له، وأبرزته كتاباته، فقال: «وكان قد انتظم في سلكه «عمارة» الشاعر، وكان من أهل اليمن، و كان ورد مصر ومدح أصحابها ونفق عليهم، فلما زالت دولتهم انضوى إلى شمس الدولة و «مدحه»<sup>(٤)</sup>، وكان إذا خلا به يصف له بلاد اليمن، وكثرة أموالها وخيرها، وضعف من فيها، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها»<sup>(٥)</sup>.

كما وجد تورانشاه تشجيعا آخر من داخل اليمن، من خلال أحد الأشراف بها، وكان قد اختلف مع ملك اليمن في ذلك الوقت وهو «عبد النبي بن مهدي»<sup>(٦)</sup>، فراسل لذلك

(١) سنا البرق، ص ٢٤، اختصار البنداري. وانظر أيضا: المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥٣.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٢.

(٣) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٢٤ - ٢٥؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٢٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ص ٢٣٨؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٧٣؛ ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٧٩٥؛ المقرئزي: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٥٢.

(٤) أورد بعض المؤرخين نماذج من شعر عمارة الذي مدح وحث فيه تورانشاه علي غزو اليمن. لمزيد من التفاصيل انظر. (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٣٨ - ٢٤٠).

(٥) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٢.

(٦) عبد النبي بن المهدي علي بن المهدي: لم تحدد المصادر العربية تاريخ ولايته، وضمت سيرته الكثير من الأعمال الغربية، فقيل أنه قام ببناء قبة عظيمة علي قبر أبيه، وأمر الناس بال الحج إليها حامنين الأموال، فجمع من ذلك أموالا لا تحصى، ومن لم يزورها قتل ومنعهم من حج بيت الله. وكان

تورانشاه وحته على غزوها. وقد انفرد ابن أبي طي بذكر هذا السبب بين كثير من المؤرخين فقال: «ووافق ذلك أنه كاتبه رجل من أهل اليمن شريف يقال له «هاشم بن غانم» وأطمعه في المعاونة لأن صاحب اليمن عبد النبي كان قد تعدى على هذا الشريف هاشم»<sup>(١)</sup>.

وهناك بعض الأسباب الأخرى لغزو تورانشاه لليمن، يتعلق أحدها بأهمية

التوسعات الخارجية للدولة الأيوبية في ذلك الوقت، وتمثل هذه الأهمية - كما أوضحها ابن الأثير - في رغبة صلاح الدين الأيوبي في إضافة المزيد من البلاد إلى أملاك الدولة الأيوبية خوفاً من قيام الملك العادل نور الدين محمود بغزو مصر. كما أضاف ابن الأثير وابن شداد سببا آخر لغزو تورانشاه اليمن، وهو الحفاظ على هبة الخلافة العباسية، حيث كان «عبد النبي بن مهدي» قد قام بقطع الخطبة العباسية في «زيد» وخطب بها لنفسه<sup>(٢)</sup>.

ولهذه الأسباب قرر تورانشاه غزو اليمن، وبدأ في اتخاذ الخطوات اللازمة لهذا الأمر، وكان أهمها أخذ موافقة أخيه الملك الناصر صلاح الدين. قال ابن أبي طي في ذلك: «فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن فأجابوه، فتجهز، ثم دخل على أخيه السلطان واستأذنه في دخول اليمن، فأذن له»<sup>(٣)</sup><sup>(٤)</sup>.

مذهبه التكفير بالمعاصي، وقتل من خالف اعتقاده كما قام بسبي الحريم، وكان أصحابه يعتقدون فيه فوق ما يعتقدون في الأنبياء، ثم تمكن «تورانشاه ابن أيوب» من قتله في عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م بعد دخوله اليمن. (أبو الفداء: المختصر، ج ٣، ص ٣٦؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٢٦٨-٢٦٩).

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٤.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٢٢؛ ابن شداد: النوادر، ص ٤٦؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٢، ص ٣٤٠؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٠٦؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣٧-٢٣٨؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٩٥؛ المقرئ: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٥٢.

(٣) اتفق المقرئ مع ما ذكره ابن أبي طي في هذا الجزء. (السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥٣).

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٤.

وعندئذ بدأ تورانشاه في إعداد القوات اللازمة للغزو، فقام - كما أوضح ابن الأثير - بتجهيز ما يلزمه من الإمدادات الغذائية والسلاح والآلات وتجنيد القوات<sup>(١)</sup>.

وقد أمدنا ابن أبي طي بالمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، وانفرد بذكر الإمدادات المالية والعسكرية التي وفرها له صلاح الدين، فقال: «وأطلق له مُغل قوص «سنة» وزوّده فوق ما كان في نفسه، واصحبه جماعة من الأمراء ومقدار ألف فارس خارجا عن سيره من «حلقته»<sup>(٢)</sup>، وسار في البر والبحر، في البر العساكر وفي البحر الأسطول يحمل الأزواد والعدد والآلات»<sup>(٣)</sup>.

وكان تورانشاه قد خرج من مصر في شهر رجب عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م، ووصل أولا - حسب رواية كل من العماد الأصفهاني وابن الأثير - إلى «مكة المكرمة»، ثم اتجه نحو اليمن، فنزل على مدينة «زبيد»<sup>(٤)</sup> و«<sup>(٥)</sup>». وقد أتفق ابن أبي طي معها في ذكر المراحل الأولى من حملة تورانشاه فقال: «فوصل إلى مكة، شرفها الله تعالى، فدخلها زائرا، ثم خرج متوجها

(١) المصدر السابق، ج ٩، ص ١٢٢ وانظر أيضا: ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣٨.

(٢) أجناد الحُكَّة: هم الطبقة الثانية من الأجناد بعد المالك السلطانية، وهم ذو أعداد كبيرة وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين، بواسطة النزول عن الإقطاعات. ولكل أربعين منهم مقدم حكمه عليهم في وقت خروج العسكر فيكون موافقهم معه. (القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٤، ص ١٥-١٦).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٤.

(٤) زبيد: مدينة مشهورة باليمن، أحدثت في عهد الخليفة العباسي المأمون (١٩٨-٢١٨ هـ / ٨١٣ م ٨٣٣ م). (ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٣١).

(٥) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٢٥؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٢٢. وانظر أيضا: ابن شداد: المصدر السابق، ص ٤٦؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٥١؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤٥؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٧٣؛ ابن خلدون: تاريخه، ج ٥، ص ٢٨٧؛ المقرئ: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٥٣.



= «علي بن مهدي»<sup>(١)</sup>،<sup>(٢)</sup>.

ثم اتجهت قوات تورانشاه نحو مدينة «عدن»، و دارت المعارك بينه وبين واليها «ياسر بن بلال بن حرب»، و انتهت - كما ذكر العماد الأصفهاني وابن الأثير - ببسط سيطرته عليها، وولى عليها «عز الدين عثمان بن الزنجيلي»<sup>(٣)</sup>، ثم واصل سيره نحو الجبال وملك العديد من القلاع مثل «تعز»<sup>(٤)</sup>، و«الجند»<sup>(٥)</sup> وغيرها من المعاقل هناك<sup>(٦)</sup>. و قد تناول أيضا ابن أبي طي هذه المراحل من فتح اليمن، ولكنها وصلتنا مختصرة، واتفق فيما ذكره مع العماد و ابن الأثير، و انفرد بإشاراته عن وصوله إلى صنعاء، فقال: «ثم رحل إلى عدن و في صحبته ابن مهدي، ففتحها عنوة وولاهها عز الدين الزنجيلي. ثم سار إلى

(١) علي بن مهدي: نشأ في قرية «العبرة» بسواحل زبيد، و كان والده «مهدي» رجلا صالحا، و نشأ ابنه مثله، و صار واعظا فالت إليه القلوب، فقام بحصار زبيد و قتل «فاتك ابن محمد» آخر ملوك «بني نجاح»، و ملك زبيد في رجب عام ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م، و بقي في الملك شهرين و أحد و عشرين يوما ثم توفي. و حكم اليمن بعده ولده «مهدي بن علي»، ثم ولده «عبد النبي بن مهدي»، ثم أخوه «عبد الله»، ثم «عبد النبي». (أبو الفداء: المختصر، ج ٣، ص ٣٥ - ٣٦؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ١٠٧ - ١٠٨؛ ابن الوردي: تاريخه، ص ٦٠ - ٦١؛ القلقشندي: صبح الأعشي، ج ٥، ص ٢٩).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٤.

(٣) هو فخر الدين عثمان بن الزنجيلي: تولى عدن في عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م نيابة عن تورانشاه، ثم غادر اليمن إلى الشام، قبل ولاية سيف الإسلام طغتكين اليمن في عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٧ م، و أسس المدرسة «الزنجيلية» خارج باب توما بدمشق و كانت له أوقاف مشهورة باليمن و مكة (العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص ١٩٢؛ ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٨٣٩؛ النعمي: المدارس في تاريخ المدارس، ج ١، ص ٤٠٤).

(٤) تعز: قلعة عظيمة من قلاع اليمن. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٤).

(٥) الجند: أعظم أعمال اليمن، بينها وبين صنعاء ثمانية و خمسون فرسخا. و الفرسخ: ثلاثة أميال. (المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٦، ج ٢، ص ١٦٩).

(٦) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٢٥؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٢٢ - ١٢٣. و انظر أيضا: ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤٢ - ٢٤٣؛ التويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٧٣ - ٣٧٤؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨٧.

«المخلاف»<sup>(١)</sup> وتسلم الحصون التي كانت في يد ابن مهدي، كتعزّ وغيرها؛ وسار إلى «صنعاء» بعد فتح مدينة الجند وغيرها»<sup>(٢)</sup>.

ثم تناول ابن أبي طي معركة تورانشاه عند صنعاء، وانفرد بها كتبه عنها فقال: «فأحرقت صنعاء، فدخلها شمس الدولة فلم يجد بها إلا شيخا وامرأة عجوزا؛ فأقام بها ثمانية أيام، ثم لم يستطع المقام لقلّة الميرة»<sup>(٣)</sup>.

ثم عاد بعد ذلك مرة أخرى إلى زبيد، وقد أوضح «العماد الأصفهاني» أنه عند وصوله إليها وجد نائبه فيها «سيف الدولة المبارك بن منقذ»<sup>(٤)</sup> قام بقتل ملك اليمن السابق «عبد النبي بن مهدي»، لأنه وجد أن المصلحة تقتضي ذلك فقتله أثناء انشغال تورانشاه في فتح بقية حصون اليمن»<sup>(٥)</sup>.

وقد عرض ابن أبي طي نفس رواية العماد الأصفهاني عن هذا الإيضاح فقال: «فرجع إلى زبيد فوجد «ابن منقذ» قد قتل عبد النبي بن مهدي. وكان شمس الدولة قد استتاب بزبيد الأمير «سيف الدولة المبارك ابن منقذ» وأمره بحمله؛ فلما بُعد شمس الدولة خاف ابن منقذ من فساد أمره فرأى المصلحة في قتله، فقتله ابن منقذ بزبيد؛ فلما بلغ شمس الدولة قتله

(١) المخلاف: اسم يطلق على كور اليمن، ويضاف إلى أسماء القبائل. فيقال مثلا: مخلاف زبيد... الخ. ونشأ هذا الاسم من استقرار أحد القبائل في موضع فتخلف بذلك عن باقي القبائل. (ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٧، ج ٥، ص ٦٧ - ٧٠).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٤.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٤) هو أبو الميمون المبارك بن منقذ الملقب سيف الدولة مجد الدين: ولد بقلعة شيزر في عام ٥٢٦هـ / ٣١ - ١١٣٢م، وهو من الأمراء الصلاحية، سار مع تورانشاه إلى اليمن، وولاه زبيد، وفي أثناء ولايته قتل بعض أهل اليمن وأخذ أموالهم فحبسه صلاح الدين وأخذ منه ثمانين ألف دينار. توفي بالقاهرة في رمضان عام ٥٨٩هـ / ١١٩٣م (العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص ٢٥؛ أبو شامة: الروضتين ج ١، ق ٢، ص ٥٥٥؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ١٤٤ - ١٤٦).

(٥) المصدر السابق، ص ٢٥. وانظر أيضا: أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٥١.

استصوبه»<sup>(١)</sup>.

ثم ختم ابن أبي طي كتاباته عن فتح تورانشاه لليمن بتوضيح خضوع باقى المناطق فيها لسيطرته، فقال: «ولما حصل شمس الدولة في زييد أنفذ إليه صاحب «طار» وصالحه هو وباقى الملوك على أداء المال. ثم تتبع تلك الحصون والقلاع فاحتوى عليها جميعها»<sup>(٢)</sup>.

وهكذا نجح شمس الدولة تورانشاه في بسط سيطرته على اليمن، وكما رأينا فقد أمدنا ابن أبي طي خلال كتاباته عن هذا الموضوع ببعض التفاصيل التى انفرد بها، وأهمها ما رواه عن المساعدة التى وجدها داخل اليمن من قبل أحد الأشراف بها، وهو الشريف هاشم الحسنى. ولعله قد تمكن من معرفة تفاصيل هذا الموضوع من خلال علاقته بأحد قضاة اليمن المعروف «بجمال الدين»، حيث أشار ابن أبي طي في أحد رواياته أنه تحدث معه وأخبره ببعض التفاصيل عن تورانشاه<sup>(٣)</sup>.

كما ظهر بصورة واضحة أن كتابات العماد الأصفهاني كانت من المصادر التى اعتمد عليها ابن أبي طي في كتابة هذا الموضوع، وظهر ذلك من خلال الاتفاق بينهما في بعض الأحداث التى ذكرها ابن أبي طي.

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٥٤. ٥٥٥.

(٣) وردت هذه الإشارة في كتابات ابن أبي طي عن الدولة الأيوبية في مصر.

## انتقال تورانشاه من اليمن إلى الشام

عام ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م

استمرت ولاية تورانشاه لليمن لمدة ثلاث سنوات تقريبا، ثم بدأ يفكر فى الانتقال إلى الشام، محل إقامة صلاح الدين، وقد علل ابن الأثير سبب انتقاله إلى شوقه إلى وطنه. وأوضح العماد الأصفهانى أنه كان قد أبلغ صلاح الدين بما عزم عليه وهو فى طريقه إلى الشام، وأرسل إليه كتابا يتضمن أبياتا من الشعر تحمل هذا المعنى<sup>(١)</sup>، وقد أتفق ابن أبي طي مع ما ذكره ابن الأثير، وانفرد بذكر سبب آخر فقال: «كان سبب خروجه من اليمن كراهية البلاد، والشوق إلى أخيه الملك الناصر، وأن يرى ملوك الشام وغيرها. وأمر للعساكر بما أنعم الله به عليه من النعم والأموال»<sup>(٢)</sup>،<sup>(٣)</sup>.

وقبل انتقاله إلى الشام، نجح فى القضاء على بعض الاضطرابات التى حدثت باليمن على أثر انتشار خبر سفره بين الناس، وقد انفرد ابن أبي طي بتوضيح هذا الموضوع فقال: «وحكى أنه لما تحدث الناس بخروج شمس الدولة من اليمن كان باليمن رجل يقال له «عباس»، وكان صهر «ياسر بن بلال الحبشى»<sup>(٤)</sup> صاحب عدن، وكان بين عباس وياسر

(١) المصدر السابق، ص ١٠٦ - ١٠٧. وانظر أيضا: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٣٨؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص ٥٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٨؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٩.

(٢) أورد ابن كثير نفس الأسباب التى أوردها ابن أبي طي عن سفر تورانشاه إلى الشام. (البداية، ج ١٢، ص ٨١٩).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٦٣.

(٤) هو أبو الفرج ياسر بن أبي الندي بلال بن جرير المحمدي: عمل وزيرا للأخوين محمد وأبي السعود ولدى عمران بن محمد بن الداعي سبأ بن أبي السعود ابن زريع بن العباس الياصمى، صاحب بلاد اليمن، و قتلته شمس الدولة تورانشاه عند دخوله اليمن. (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٣٨٦، ٣٨٩).

عداوة، فافتعل عباس كتابا على لسان ياسر وزور عليه علامته إلى «زيد بن عمرو ابن حاتم» صاحب صنعاء يقول فيه: «إن شمس الدولة سائر إلى أخيه الملك الناصر إلى الشام، و سبب خروجه ضعفه عن اليمن؛ فأمسكوا ما كنتم تحملون إليه من الإتاوة و الرشوة {ويبقى}»<sup>(١)</sup> لكم». واحتال حتى وصل الكتاب إلى شمس الدولة، وكان نازلا على حصن يعرف «بالخضراء»<sup>(٢)</sup> يحاصره. فلما وقف شمس الدولة على الكتاب استدعى ياسرا وقال له: هذا خطك وعلامتك؟ قال: كأنه هو. قال: {فبأي}»<sup>(٣)</sup> شئ استحققت منك هذا وقد قربت منزلتك، وأبقيت عليك بلادك، ورفعت بضعك على أهل إقليمك. وأراه الكتاب. فلما وقف عليه ياسر حلف أنه ما كتبه، ولا يعرفه، ولا أملاه لأحد، ولم يعلم خبره. فلم يصدقه شمس الدولة، و أمر به فقتل صبورا بين يديه. فهاب شمس الدولة ملوك اليمن وحملوا إليه الأموال و حلفوا له على الطاعة»<sup>(٤)</sup>.

كما نجح أيضا تورانشاه قبل سفره إلى الشام في بسط سيطرته على منطقة «حضر موت»<sup>(٥)</sup>، كذلك قام باختيار نوابه في مختلف أقاليم اليمن، وقد آمدنا ابن أبي طي أيضا بتفاصيل كل هذه الأمور قائلا: «ثم إن شمس الدولة خرج إلى «تهامة»<sup>(٦)</sup>، و توجه إلى الشام واستخلف على تهامة سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ؛ و عثمان ابن على الزنجيلي على عدن؛ و توجه إلى «حضر موت» ففتحها، واستتاب عنه بها رجلا كرديا

(١) في «طبعة دار الجليل». «يقي». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٥٩).

(٢) الخضراء: حصن باليمن في جبل وصاب من عمل زيد. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٧٦).

(٣) في «طبعة دار الجليل». «بأي». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٥٩).

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦٦٣-٦٦٤ (طبعة دار الكتب).

(٥) حَضْرَمَوْت: ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٧٠).

(٦) تَهَامَة: تقع في الجزيرة العربية، وهي أحد أقسامها الخمسة التي تتكون من: تهامة، الحجاز، نجد، العروص، اليمن. (المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٣٧).

يسمى «هارون» وكان مقامه «بشيام»<sup>(١)</sup>، واستمر الكردي بها مدة. ثم إن صاحب حضر موت تحرّك وجمع، فقتل، وعاث هارون في تلك البلاد واستقام أمره. وولّى شمس الدولة نغر «تعزّ» مملوكه «ياقوت» وجعل إليه أمر «الجند» وولّى قلعة «بعكر» مملوكه «قايهاز»<sup>(٢)</sup> «<sup>(٣)</sup>».

ومنذ انتقال شمس الدولة تورانشاه إلى الشام، لم يعد مرة أخرى إلى اليمن، حيث أنابه صلاح الدين في حكم دمشق، وظل مقيماً بها حتى عام ٥٧٤ هـ / ٧٨ - ١١٧٩ م<sup>(٤)</sup>، ثم ولاء صلاح الدين الإسكندرية، فانتقل إلى مصر. كما ذكر العماد الأصفهاني - في آخر ذلك العام، وظل والياً عليها حتى توفي في المحرم عام ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م<sup>(٥)</sup>.

وقد أورد ابن أبي طي عنه ترجمة كبيرة أضاف فيها بعض التفاصيل عنه، ومنها توضيح موقفه من ولايته للإسكندرية، وأسباب وفاته، ومكان مدفنه الأول، فقال: «كان السلطان قد أنفذ أخاه شمس الدولة إلى الإسكندرية وجعل إليه ولايتها، فلما حصل بها لم توافقه، وكان يعتاده «القولنج» فهلك به، ودفن بقصر الإسكندرية»<sup>(٦)</sup> «<sup>(٧)</sup>».

ثم نُقل تورانشاه بعد ذلك ودفن في دمشق<sup>(٨)</sup>. وقد تميز تورانشاه بجوده وكرمه، حتى

- 
- (١) شبام: مدينة تقع في حضر موت. (المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٠).
- (٢) ألمح ابن كثير إلى ما ذكره ابن أبي طي عن بعض الترتيبات الإدارية التي أقرها تورانشاه في اليمن بقوله: «استتاب علي بلاد اليمن من ذوى قرابته» (البداية، ج ١، ص ٨١٩).
- (٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٦٤.
- (٤) ابن خلكان: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠٦، ٣٠٨؛ الذهبي: المصدر السابق، ج ١٥، ص ٣٠٤.
- (٥) المصدر السابق، ص ١٧٨. وانظر أيضاً: ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٦.
- (٦) تطابقت رواية «ابن كثير» مع كتابات ابن أبي طي في هذا الجزء (البداية، ج ١٢، ص ٨٣٥).
- (٧) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ٥٦.
- (٨) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ٥٦؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠٧؛ الذهبي: العبر، ج ٣، ص ٧٢؛ أبو المحاسن: النجوم، ج ٦، ص ٨٧.

حتى أنه قيل انه توفي وكان عليه مائتا ألف دينار مصرية<sup>(١)</sup>، وذكر ابن أبي طي أيضا هذه الميزة وأضاف بعض الصفات الأخرى، كما عرض بعض أبيات من الشعر للشاعر «ابن سعدان الحلبي» في مدح كرم تورانشاه، فقال: «وكان أحد الأجواد الكرماء الأفراد، شجاعا، باسلا، عظيم الهية، كبير النفس، واسع الصدر، تمدّحا، فيه يقول «ابن سعدان الحلبي» من قصيدة:

هو الملك إن تسمع بكسرى وقيصر	فلإتباعها في الجود والبأس عبدها
وما حاتم عمن يقاس بمثله	فخذ ما رأيناه ودع ما رويناه
ولذبلراه مستجيرا فإنه	يجيرك من جور الزمان وعذواه
فلا تتحمل للسحاب مئة	إذا هطلت جودا سحاب جدواه
ويرسل كفيه بما اشتق منها	فلليمن يمناه ولليسر يسراه <sup>(٢)</sup> ، <sup>(٣)</sup>

ولاية سيف الإسلام طغتكين اليمن:

استقر رأى صلاح الدين بعد وفاة شمس الدولة تورانشاه في عام ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م على إسناد ولاية اليمن إلى أخيه الأصغر «سيف الإسلام طغتكين»، وقد أوضح ابن أبي طي أن هذه كانت رغبة سيف الإسلام نفسه، ولهذا طلب من أحد الشعراء المعروفين في حلب كتابة قصيدة تحت صلاح الدين على ولايته لها، وانفرد ابن أبي طي بذكرها فقال: «كانت نفس سيف الإسلام طغتكين أخى السلطان، تشرئب إلى اليمن من حيث مات أخوه «شمس الدولة» ويشتهي أن يصير إليها فأمر «ابن سعدان الحلبي» أن يعمل قصيدة يعرض فيها بإنقاذ سيف الإسلام إلى اليمن، فعمل القصيدة التي يقول فيها:

(١) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ١٧٨؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٥٢؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج ٣، ص ٦٣؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٣٠٤؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج ٣، ص ٤٠٤؛ العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٥٦.  
 (٢) تطابقت رواية «ابن كثير» مع كتابات ابن أبي طي في هذا الجزء أيضا. (البديلية، ج ١٢، ص ٨٣٥).  
 (٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ٥٦.

جرد لها السيف الصقيل فتنةً  
شُدَّ به أزر العلافإنه  
القائل المسمع في مقالته  
بادى الفؤاد كيفما سيرته  
وفيها يقول:

يا ابن الكرام الثُجباء والذي  
لا تعد عيناك عن الملك فما  
قد فسد الملك وقد طال العدا  
ثم قال ابن أبي طي: فلما سمع السلطان هذه القصيدة أذن لسيف الإسلام في المسير  
إلى اليمن<sup>(١)</sup>.

وفي حقيقة الأمر فقد كانت الفتن والاضطرابات التي عمت أرجاء اليمن عقب وفاة  
توران شاه، وراء قرار صلاح الدين بإسناد ولاية اليمن إلى أخيه سيف الإسلام طغتكين في  
عام ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م، حيث عمل نواب تورانشاه في اليمن على الاستقلال بولايتهم، مما  
أوشك على خروج اليمن عن حكم الدولة الأيوبية<sup>(٢)</sup>.

وقد توجه سيف الإسلام طغتكين إلى اليمن في عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٢-٨١ م، ونجح  
في قمع هذه الفتن<sup>(٣)</sup>، ثم طالب صلاح الدين في العام التالي بكتابة عهدا بولايته لها، فأرسله  
له، وقال ابن أبي طي في ذلك: «ولما بلغ سيف الإسلام أن السلطان كتب «لتقى الدين»

(١) المصدر نفسه، ص ٨١.

(٢) لزيد من التفاصيل عن أحوال اليمن قبل ولاية سيف الإسلام انظر . (العياد الأصفهاني : سنا البرق  
، ص ١٨٩-١٩١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٥٣ ، ١٥٥ ) .

(٣) العياد الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ١٩١-١٩٢ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٥٦  
؛ أبو الفداء : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٦٥ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ١٥ ، ص ٤٦٦ ؛ ابن  
كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٨٣٩ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٩١ .

عهدا بولاية مصر، عتب لأجل ذلك، فكتب السلطان عهدا ببلاد اليمن جميعها<sup>(١)</sup>. ولعل قلق صلاح الدين من نجاح سيف الإسلام في إدارة اليمن كان وراء تأخير إرسال عهدا له بولايتها.

وقد كانت كتابات ابن أبي طي عن ولاية سيف الإسلام طغتكين اليمن بعد وفاة أخيه شمس الدولة تورانشاه آخر ما وصلنا من كتاباته عن تاريخ حكم الدولة الأيوبية في اليمن.

وتميزت معظم كتاباته التي تناول فيها الاضطرابات التي قامت في اليمن على أثر انتشار خبر سفر تورانشاه إلى الشام في عام ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م، كذلك روايته عن وفاة تورانشاه في الإسكندرية في عام ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م، ورغبة سيف الإسلام في ولاية اليمن من بعده، بما أورده من تفاصيل لم يذكرها كثير من المؤرخين. كما تمثلت أهمية كتاباته أيضا في تدعيمه لها بالعديد من أبيات الشعر التي كتبها الشاعر الحلبي ابن سعدان

كذلك لاحظنا اتفاق كتابات المؤرخ «ابن كثير»، وتطابق بعض كتاباته مع رواية ابن أبي طي عن أسباب سفر تورانشاه إلى الشام، ووفاته في الإسكندرية في عام ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م.

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٧٠.

### ثالثا: كتابات ابن أبي طي عن تاريخ المغرب

حظى تاريخ المغرب باهتمام المؤرخ ابن أبي طي الحلبي، فأفرد لدراسته كتابا مستقلا، وهو بعنوان: «مختار تاريخ المغرب»<sup>(١)</sup>، كما تناول تاريخه ضمن مؤلفات تخصصت في موضوعات أخرى، فأرخ للمغرب في كتابه الذي ألفه لدراسة تاريخ معظم بلاد العالم الإسلامي، وهو: «معادن الذهب في تاريخ الملوك والخلفاء وذوي الرتب»<sup>(٢)</sup>، كذلك تناول ابن أبي طي تاريخ المغرب في كتابه الذي ألفه عن السلطان صلاح الدين وهو: «كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين»<sup>(٣)</sup>، والذي اشتهر «بالسيرة الصلاحية»<sup>(٤)</sup>.

وقد وصلنا من كتابات ابن أبي طي عن تاريخ المغرب بعض كتاباته عن تاريخ «دولة الموحدين»، ووجدنا هذه الأحداث ضمن كتابه «معادن الذهب»، وأوردها عنه المؤرخ «ابن الفرات»، كما وصلنا بعض كتاباته عن «فتوحات السلطان صلاح الدين في المغرب»، ضمن كتابه الذي ألفه عن «السيرة الصلاحية»، وأوردها عنه المؤرخ «أبو شامة».

(١) الكتبي: قوات الوفيات، ج ٤، ص ٢٧٠ - ٢٧١؛ الطباخ الحلبي: أعلام النبلاء، ج ٤، ص ٣٧٨

؛ الباز العريني: مؤرخو الحروب الصليبية، ص ٢٣٦؛ ٥٦. C. Cahen: La Syrie de nord, p. ٥٦.  
(٢) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ج ١، أحداث عام ٥٠٣ هـ (مخطوط)؛ C. Cahen: La Syrie de nord, p. ٥٥; une chronique, p. ٢٦١;

الباز العريني: المرجع السابق، ص ٢٣٥.

(٣) الكتبي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٧٠؛ الطباخ الحلبي: المرجع السابق، ج ٤، ص ٣٧٨؛ الباز

العريني: المرجع السابق، ص ٢٣٥؛ نظير حسان سعداوي: المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين،

ص ٣؛ فتحة النبراي: العلاقات السياسية، ص ٩٩. C. Cahen: La Syrie de nord, pp. ٩٩.

٥٥-٥٦.

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ١٠٩.

## كتابات ابن أبي طي عن تاريخ دولة الموحدين بالمغرب

غطت الكتابات التي وصلتنا من تاريخ دولة الموحدين لابن أبي طي فترة هامة من تاريخ الدولة في العقود الأولى منها، فتناول تاريخ «أبو عبد الله محمد بن تومرت»، الذي مهدت جهوده لقيام الدولة، وتاريخ خليفته «عبد المؤمن بن علي» الذي اتسعت في عهده رقعة دولة الموحدين على أنقاض «دولة المرابطين» (٤٥١ - ٥٤١ هـ / ١٠٥٩ - ١١٤٦ / ١١٤٧ م).

### أولاً: عهد أبو عبد الله محمد بن تومرت (٥١٥ - ٥٢٤ هـ / ١١٢١ - ١١٣٠ م)

سجلت كتابات ابن أبي طي أحداثاً هامة شهدتها دولة الموحدين في عهد مؤسسها أبو عبد الله محمد بن تومرت، وقبل عرضه لهذا الموضوع اهتم ابن أبي طي بتتبع أحوال ابن تومرت، وأمدنا بالكثير من التفاصيل حول أصله ونسبه ودراسته، والخطوات الأولى التي مهد بها لقيام الدولة.

#### أصله ونسبه ودراسته:

أشار ابن أبي طي في مقدمة روايته عن هذا الموضوع في أحداث عام ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ - ١١١٠ م إلى انتقال ابن تومرت من المغرب إلى المشرق في رحلة للدراسة، وذكر وصوله إلى بغداد للترؤد من علم الإمام «الغزالي»<sup>(١)</sup> فقال: «وفيها اجتمع أبو عبد الله بن

(١) هو أبو حامد محمد بن أحمد الملقب بحجة الإسلام زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي: ولد في عام ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م بمدينة طوس، تلقى العلم علي علماء طوس ونيسابور، ثم بلغ مكانة كبيرة أهله للتدريس في المدرسة النظامية في بغداد في عام ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م، ثم ترك التدريس بها في عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م، وسلك طريق الزهد، وسار إلى الشام في عام ٤٩٩ هـ / ١٠٩٦ م وألف هناك كتابه

تومرت بالغزالي ببغداد»<sup>(١)</sup>.

ثم أكد ابن أبي طي مرة أخرى في أحداث نفس العام اجتماع ابن تومرت مع الإمام الغزالي في بغداد، وأوضح أنه استشار الغزالي فيما كان يفكر فيه بشأن إقامة دولة جديدة في المغرب، فقال: «وصار إلى بغداد، واجتمع بالغزالي، ففاوضه فيما يضمه من القيام بأمر الله تعالى، فاستصعب له الغزالي ذلك، وقال: لو أمكن... أنا عليه»<sup>(٢)</sup>.

ومن خلال هذه النصوص يتضح لنا أن ابن أبي طي اتفق مع الرأي القائل بلقاء ابن تومرت مع الإمام الغزالي أثناء رحلته للدراسة في المشرق، وقد ذكر هذا الرأي أيضا كثير من المؤرخين السابقين<sup>(٣)</sup> والمعاصرين<sup>(٤)</sup> واللاحقين بابن أبي طي<sup>(٥)</sup>، وهناك رأى آخر نفى وشكك في حدوث اللقاء بينهما<sup>(٦)</sup>.

أما بالنسبة للتاريخ الذي حدد فيه ابن أبي طي لقاء ابن تومرت والغزالي، فقد اتفق فيه مع المؤرخ ابن القطان (ت منتصف القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي) حيث أشار إلى حضور ابن تومرت مجلس الغزالي في بغداد أثناء وصول خبر إحراق كتاب

«الإحياء»، وظل مقيما به لمدة عشر سنوات، ثم عاد إلى بغداد وسُمع منه كتاب الإحياء، ثم عاد إلى طوس، وتوفي بها في جمادى الآخرة عام ٥٠٥ هـ / ١١١١ م. (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢١٦-٢١٨؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٤، ص ٣٢٥، ٣٢٧).

(١) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ٤٣.  
 (٢) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ٤٤.  
 (٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٤٥٣.  
 (٤) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ١٧٨-١٧٩؛ ابن القطان: نظم الجمان، ص ٧٣.

(٥) ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٦؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٤، ص ٢٧٧؛ ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس، ص ١١١؛ الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص ٤؛ السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ٣، ص ١٢-١٣.  
 (٦) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٩٤؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٢٦.

«الإحياء» للغزالي في قرطبة، وكان ابن القطان قد أوضح أن هذا الكتاب صدر لأمر بإحراقه في بداية عام ٥٠٣ هـ<sup>(١)</sup>.

وقد أكد أيضا بعض المؤرخين حضور ابن تومرت هذا المجلس وقت وصول نبأ إحراق كتاب الإحياء، لكنهم لم يذكروا تاريخا لهذا الحدث، كما أوردوا أيضا ما ذكره ابن أبي طي عن حديث ابن تومرت مع الغزالي بشأن إقامته دولة جديدة في المغرب، وأوضحوا أن الغزالي دعا في ذلك المجلس إلى تمزيق دولة المرابطين، وأن يتم ذلك على يد ابن تومرت<sup>(٢)</sup>.

مما سبق يتضح لنا أن ما ذكره ابن أبي طي عن لقاء ابن تومرت والإمام الغزالي اتفق في مضمونه مع آراء غيره من المؤرخين الذين ذكروا هذا اللقاء؛ إلا أن ما ذكره ابن أبي طي عن حديث ابن تومرت معه بشأن إقامة دولة جديدة بالمغرب لا يتفق مع روايات غيره من المؤرخين. ثم تناول ابن أبي طي في روايته بعد ذلك أصل ابن تومرت واتفق فيها ذكره مع معظم المؤرخين<sup>(٣)</sup> فقال: «وهذا هو صاحب دعوة عبد المؤمن، وكان أبو عبد الله محمد بن تومرت «الهرغي»<sup>(٤)</sup> من قبيلة بجبال المغرب يقال لهم «المصامدة»<sup>(٥)</sup>

(١) المصدر السابق، ص ٧٠، ٧٣.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص ٤٥٣؛ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص ١٧٨ - ١٧٩؛ ابن القطان: المصدر نفسه، ص ٧٣؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٢٦؛ ابن

أبي دينار: المصدر السابق، ص ١١١؛ الزركشي: المصدر السابق، ص ٤.

(٣) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص ١٧٨؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٩٤؛

ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٥؛ التويري: المصدر السابق، ج ٢٤، ص ٢٧٧؛ ابن

خلدون: المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٢٥؛ السلاوي: المصدر السابق، ج ٣، ص ١١.

(٤) نسبة إلى قبيلة هرغة من بطون المصامدة. (ابن خلدون: تاريخه، ج ٦، ص ٢٢٥).

(٥) المصامدة: هم من ولد «مصمود بن يونس بربر»، ويعتدوا أكثر قبائل البربر، من بطونهم:

برغواطة، وهم كان لهم قبل الإسلام وفي صدره التقدم، ومنهم: «غمارة»، ومن بطونهم أيضا:

أهل جبال «دزن» بالمغرب الأقصى، وقبائل المصامدة بهذه الناحية كثيرة فمنهم: هرغة، هتاتة،

وتينممل، ودكالة، ومنهم تأسست الدولة الموحدية، ويجمع الكل جنس البربر، من طرابلس

ينسبون إلى.....»<sup>(١)</sup>.

أما بالنسبة لنسب ابن تومرت فقد قيل أنه يمتد إلى بيت رسول الله (صلعم)، وأكد هذا الرأي بعض المؤرخين<sup>(٢)</sup> ومن بينهم ابن أبي طي فقال: «وكان أبو عبد الله بن تومرت هذا ينسب إلى الحسن بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهما»<sup>(٣)</sup>، وهناك رأي آخر شكك في هذا النسب لتأصيل نسبه البربري<sup>(٤)</sup>، وقد حسم

«ابن خلدون» هذا الخلاف بقوله: «وعلى الأمرين فإن نسبة الطالبي وقع في هرغة من قبائل المصامدة، ورسخت عروقه فيهم، والتحم بعصبيتهم فلبس جلدتهم، وانتسب بنسبتهم وصار في عددهم»<sup>(٥)</sup>.

وولد «ابن تومرت» بمنطقة «سوس»<sup>(٦)</sup>، وقد أوضح ذلك كثير من المؤرخين<sup>(٧)</sup>، واتفق معهم ابن أبي طي فقال: «وولد ابن تومرت المذكور بجبل

المغرب إلي أقصى سوس. (عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٣٤٠-٣٤١؛ ابن خلدون: تاريخه، ج ٦، ص ٢٠٦-٢٠٧، ٢٢٤-٢٢٥).

(١) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ٤٣.

(٢) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص ١٧٨؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٩٤؛ ابن القطان: المصدر السابق، ص ٨٧-٨٨؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٦؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٤، ص ٢٧٧؛ الزركشي: المصدر السابق، ص ٣.

(٣) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ٤٣.

(٤) ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٢٥-٢٢٦؛ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص ١١١؛ السلاوي: المصدر السابق، ج ٣، ص ١١.

(٥) المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٢٦.

(٦) السُّوسُ: بضم أوله وسكون ثانيه، يطلق هذا الاسم - كما يقول ياقوت الحموي - علي كورة بالمغرب عاصمتها «طنجة»، وأيضاً علي كورة أخرى تعرف «بالسوس الأقصى» عاصمتها «طَرْقَلَة»، وحدد ابن خلكان موقع جبل السُّوس في أقصى بلاد المغرب. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٨١؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٤٦).

(٧) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص ١٧٨؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٩٤؛

السُّوس<sup>(١)</sup>

ثم تلقى «ابن تومرت» قسطا وافرا من العلم في رحلته النثر، قام بها إلى المشرق في مطلع القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي<sup>(٢)</sup>، واجتمع هناك بأئمة المذهب «الأشعري»<sup>(٣)</sup> من أهل السنة وأخذ عنهم<sup>(٤)</sup>، فلقى «أبو بكر الشاشي»<sup>(٥)</sup> في بغداد، وأخذ عليه شيئا من أصول الفقه وأصول الدين<sup>(٦)</sup>، ثم انتقل إلى الإسكندرية وحضر بها مجلس الشيخ «الطرطوشي»<sup>(٧)</sup>،<sup>(٨)</sup>.

وقد أكد ذلك أيضا ابن أبي طي في روايته عن شيوخ ابن تومرت فقال: «وتفقه على

- 
- ابن القطان: المصدر السابق، ص ٩٠؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٦؛ التويري: المصدر السابق، ج ٢٤، ص ٢٧٧؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٢٦.
- (١) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ٤٣.
- (٢) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص ١٧٨؛ ابن القطان: المصدر السابق، ص ٦٢.
- (٣) الأشعرية: أتباع أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، وهم من الفرق الذين يشتون لله تعالى صفات دلت أفعاله عليها مثل كونه عالما، قادرا، مريدا، وهذه الصفات أزلية قائمة بذاته تعالى. للمزيد من التفاصيل انظر: (الشهرستاني: الملل والنحل، ج ١، ص ٩٢-١٠٣).
- (٤) ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٢٦.
- (٥) هو محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر أبو بكر الشاشي الفقيه: ولد في المحرم عام ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م، وعمل بالتدريس في المدرسة النظامية في بغداد، وكان أشعريا، توفي في شوال عام ٥٠٧ هـ / ١١١٤ م. (ابن الجوزي: المتظم، ج ٩، ص ١٧٩).
- (٦) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص ١٧٨.
- (٧) هو أبو بكر محمد بن الوليد القرشي الفهري الأندلسي الطرطوشي الفقيه المالكي: ولد في عام ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م، تلقى العلم على علماء الأندلس، ثم رحل إلى بلاد المشرق ليتلقى المزيد من العلم، كان إماما عالما ألف العديد من المؤلفات منها «سراج الملوك»، وتوفي في جمادى الأولى عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م بالإسكندرية. (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٦٢-٢٦٤).
- (٨) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص ١٧٩؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٩٤؛ ابن القطان: المصدر السابق، ص ٩١؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٦؛ التويري: المصدر السابق، ج ٢٤، ص ٢٧٧؛ الزركشي: المصدر السابق، ص ٤.

مذهب «أبي بكر محمد بن ....» «على مذهب الأشعري»<sup>(١)</sup>، وكان تفقهه ببلد الإسكندرية على الشيخ أبي محمد بن الوليد الفهرى «الطرسوسي»<sup>(٢)</sup>،<sup>(٣)</sup>.

وفي أثناء رحلة ابن تومرت إلى المشرق صار في عام ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ - ١١١٠ م - إلى دمشق، وقال ابن أبي طي عن ملخص رحلته إلى هناك: «فأنكر فيها بعض المنكرات، فطلب، فهرب إلى حلب»<sup>(٤)</sup>، وقد أمدنا ابن أبي طي بتفاصيل وصول هذا الخبر إلى حلب، وانفرد بذكر الإجراءات التي اتبعت في البلد للقبض عليه من قبل والي حلب الملك «فخر الملوك رضوان بن تنش» (٤٨٨ - ٥٠٧ هـ / ١٠٩٥ - ١١١٣ م)، فقال: «حدثني (أبي) ظافر قال: أعرف وقد غلقت أبواب المدينة بحلب وأبواب الجامع ونادى منادى من قبل الملك «رضوان» صاحب حلب: «من عرفنا برجل مغربي، طوال، «أثطارق»، في مقدم وجهه ضربه، فله كذا من المال»، واجتهدوا في تحصيله فما وجد»<sup>(٥)</sup>.

واتجه ابن تومرت في رحلته أيضا في نفس العام إلى مكة المكرمة وأخذ فيها أيضا ينادى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد أشار ابن أبي طي إلى تفاصيل رحلته إليها فقال: «فرحل أبو عبد الله بن تومرت إلى مكة المشرفة، وأقام بها، فرأى ما الناس عليه من الجهل وإهمال السنة، فبدا منه أن أنكر ذلك، فنال ضرر أذاه إلى الخروج عن مكة المشرفة، وكان إذا ناله ضرر خلط في كلامه»<sup>(٦)</sup>.

(١) لم يتضح لنا اسم هذا الفقيه الأشعري في مخطوط تاريخ الدول والملوك لابن الفرات، وقد وجدنا أن الفقيه محمد بن أبو بكر الشاشي - الذي ذكره عبد الواحد المراكشي كأحد شيوخ ابن تومرت - يتفق من حيث الاسم والمذهب مع ما ظهر لنا في المخطوط عن هذا الفقيه.

(٢) الطرسوسي: ذكر ابن أبي طي الاسم هكذا، وهو خطأ، والصواب «الطرطوشي» كما ذكرنا في ترجمته في الصفحة السابقة.

(٣) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ٤٣.

(٤) المصدر نفسه، ورقة ٤٤.

(٥) المصدر نفسه والورقة.

(٦) المصدر نفسه والورقة.

وقد أورد «ابن خلكان» أيضا رحلة ابن تومرت إلى مكة، واتفق مع ابن أبي طي فيما ذكره من تفاصيل الرحلة، وأضاف أنه درس هناك الحديث الشريف وأصول الفقه والدين<sup>(١)</sup>.

ثم أورد ابن أبي طي بعد روايته عن رحلة ابن تومرت إلى مكة بعض أبيات من «شعر ابن تومرت»<sup>(٢)</sup>، تشير إلى رغبة ابن تومرت في إصلاح ما أصاب الأمة من

فساد، فقال: «وكان كثيرا ما ينشد والشعر له:  
 درنى تقى النفس.... {لألبسن} لها درعاً وجلبابا  
 والله لو مكنت مما تروم يدي ما كنت عن ضرر..... الزرى آبا  
 حتى أظهر دين الله من دنس وأوجب الحق للسادات إيجابا  
 واترك.... من.... منتشرا وصار... في..... محرابا  
 وأملا الأرض عدلا مثل ما ملئت جورا وافتح للخيرات أبوابا  
 واترك الحق يعلو فوق باطنه.... من ولاة الدين ركابا»<sup>(٣)</sup>

ثم ختم ابن أبي طي رحلة ابن تومرت في المشرق بقوله: «ولم يزل ابن تومرت يتنقل من مكان إلى مكان حتى وصل إلى مصر»<sup>(٤)</sup>.

ويعد أن أنهى ابن تومرت رحلته التي قام بها في المشرق للدراسة، والتي قضاهها بين بغداد والشام ومكة ومصر عاد إلى المغرب، وتنقل بين كثير من البلدان والقرى به داعيا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد استجابت لدعوته بعض من هذه البلدان وكانت

- 
- (١) ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٦؛ السلاوي: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٣.  
 (٢) أورد ابن خلكان نماذج أخرى من شعر ابن تومرت. (وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٥٤-٥٥).  
 (٣) هكذا كُتبت في مخطوط تاريخ الدول والملوك لابن الفرات، والصواب لألبسن.  
 (٤) ابن الفرات: المصدر السابق، م ١، ج ١، ورقة ٤٤.  
 (٥) المصدر نفسه والورقة.

النواة الأولى لدولة الموحدين.

### جهود ابن تومرت لتأسيس دولة الموحدين:

وصلنا من كتابات ابن أبي طي بعض الملامح التي توضح جهود ابن تومرت التي مهد بها لقيام دولة الموحدين في المغرب، وبدأ هذه الكتابات بعرض تفاصيل تنقلاته بين بلاد المغرب لنشر دعوته. ومن الجدير بالذكر أن نشير هنا إلى أن ابن أبي طي اختلف مع كثير من المؤرخين في ترتيب تنقلات ابن تومرت في بلاد المغرب بعد عودته من رحلته في المشرق، حيث ذكر بعض المؤرخين أنه اتجه أولاً إلى «المهدية»<sup>(١)</sup>، ثم وأصل السير نحو «بجاية»<sup>(٢)</sup>، ثم إلى «ملالة»<sup>(٣)</sup> ثم بلغ «مراكش»، ثم «أغمات»<sup>(٤)</sup>، وبدأ البعض الآخر رحلته من «بجاية»<sup>(٥)</sup>.

أما بالنسبة لابن أبي طي فقد بدأ رحلة ابن تومرت في بلاد المغرب من ملالة، ثم أشار إلى وصوله إلى مراكش، ثم عاد وتكلم عن رحلته إلى المهدية وبجاية وأغمات.

(١) المهدية: بالفتح ثم السكون، توجد في موضعين، الأول في إفريقية، والثاني اختطه عبد المؤمن ابن علي قرب سلا، والموضع الأول هو المقصود هنا (ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٢٩).

(٢) بجاية: بالكسر، مدينة علي ساحل البحر بين إفريقية والمغرب. (المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٣٩)

(٣) ملالة: بالفتح ثم التشديد، قرية قرب بجاية علي ساحل البحر (المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٨٩)

(٤) أغمات: بالفتح، ناحية قرب مراكش (المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٢٥).

(٥) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٩٤ - ٢٩٥؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٦ -

٥٠؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٤، ص ٢٧٨ - ٢٨٠؛ الزركشي: المصدر السابق، ص ٤ - ٥؛

السلامي: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٣ - ١٩.

(٦) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص ١٧٩ - ١٨٤؛ ابن القطان: المصدر السابق، ص ٧٦ -

## وصول ابن تومرت إلى ملالة:

عرض ابن أبي طي تفاصيل رحلة ابن تومرت إلى ملالة عقب انتهاء كتاباته عن رحلته في المشرق، والتي كان قد أورد معظمها ضمن أحداث عام ٥٠٣ هـ<sup>(١)</sup>، وفي الحقيقة فإن تاريخ عودة ابن تومرت إلى المغرب لم يتفق في تحديدها كثير من المؤرخين

فقليل أنه عاد في عام ٥٠٥ هـ / ١١١١ - ١١١٢ م<sup>(٢)</sup>، وقيل في عام ٥١٠ هـ / ١١١٦ - ١١١٧ م<sup>(٣)</sup>، وقيل أيضا في عام ٥١١ هـ / ١١١٧ - ١١١٨ م<sup>(٤)</sup>.

ثم عرض ابن أبي طي في روايته عن وصول ابن تومرت إلى ملالة لقاء ابن تومرت مع أحد أهم أتباعه بعد ذلك وهو «عبد الله الونشريسي» الملقب بالبشير، واتفق بذلك مع «عبد الواحد المراكشي» في تحديد مكان لقائه به<sup>(٥)</sup>. كذلك تناول ابن أبي طي الاتفاق الذي تم بين ابن تومرت والونشريسي حول تكتم الونشريسي لأمر فصاحته وعلمه بين الناس، وقد روى هذا الاتفاق أيضا بعض المؤرخين<sup>(٦)</sup>. قال ابن أبي طي: «ثم صار إلى المغرب، فأقام بقرية يقال لها «ملالة» وصاحب فيها رجلا يقال له «عبد الله الونشريسي» وكان معروفا عند الناس بالفصاحة والعلم في تلك البلاد، فأمره ابن تومرت أن... ويظهر البكم والطرش ويشعث خلخته لينكره من يعرفه، ويتم له ما يؤمله من ظهور أموره، فأظهر

(١) ابن الفرات: المصدر السابق، ج ١، ورقة ٤٣ - ٤٤.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٩٤؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٦؛

النويري: المصدر السابق، ج ٢٤، ص ٢٧٨؛ السلاوي: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٣.

(٣) ابن أبي دینار: المصدر السابق، ص ١١١.

(٤) ابن القطان: المصدر السابق، ص ٧٦؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٧؛ السلاوي:

المصدر السابق، ج ٣، ص ١٣.

(٥) المصدر السابق، ص ١٨١.

(٦) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٩٧؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٨؛

النويري: المصدر السابق، ج ٢٤، ص ٢٨٣.

الونشريسي جميع ما امره حتى انكره أقرابه وسبه صاحبه»<sup>(١)</sup>. ثم أوضح ابن أبي طي بعد ذلك تفاصيل لقاء ابن تومرت مع «عبد المؤمن بن علي»، والذي سيقوم بدور هام في ترسيخ قواعد دولة الموحدين، وقد لاحظنا أن رواية ابن خلكان عن هذا الموضوع اتفقت اتفاقا كبيرا مع ابن أبي طي مما يوضح أنه اعتمد على نفس المصدر الذي أخذ عنه ابن أبي طي، ومن ناحية أخرى اختلف بعض المؤرخين مع ابن أبي طي في تحديد مكان لقاء ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي وذكروا أنه كان في ملالة<sup>(٢)</sup>.

قال ابن أبي طي: «ثم أن ابن تومرت استدنا إلى... رجالا من أهل المغرب أشداء أقويا أغمارا حتى صار في سبعة نفر، ثم رحل بهم طالبا أقصى بلاد المغرب، وجعل يسير في تلك البلاد..... يقيم في كل بلد المدة اليسيرة حتى يكشف البلد، ولما دخل «أول المغرب الأقصى» وكان صعد إلى جبل.... لقي رجلا شابا قد بلغ أشده..... حال أصابعه متساوية في الطول، فقال له ابن تومرت: ما اسمك؟ فقال: «عبد المؤمن». وكان ابن تومرت قد تكهن وعلم من صفات القائم بهذا الأمر شيئا يستدل به عليه، فوافقت هذه الصفات ما عند ابن تومرت من.. فقال له: من أنت؟ فقال: من «كومية»، وهي قبيلة صغيرة بالمغرب، فقال له أين قصدك؟ قال: بلاد الشرق لأجل طلب العلم. فقال له: قد ظفرت فاصحبتني، فصحبه حتى دخلوا مدينة «مراكش»<sup>(٣)</sup>.

ثم تناول ابن أبي طي مسير ابن تومرت نحو المهديّة، وأورد رواية انفرد بها توضح جانباً من لدور الذي قام به هناك، وكان كثير من المؤرخين قد ذكروا أن وصوله إلى المهديّة كان

(١) ابن الفرات: المصدر السابق، ج ١، ورقة ٤٤.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر: (المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٨ - ٤٩). عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص ١٨٠ - ١٨٢؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٩٥؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٤، ص ٢٧٨؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٢٧؛ الزركشي: المصدر السابق، ص ٥؛ السلاوي: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤.

(٣) ابن الفرات: المصدر السابق، ج ١، ورقة ٤٤.

في عام ٥٠٥ هـ / ١١١١ م في عهد «يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي (٥٠١ - ٥٠٩ هـ / ١١٠٧ - ١١١٥ م)، وأنه واصل بها الدعوة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن واليها استدعاه وأكرمه وسأله الدعاء له<sup>(١)</sup>.

قال ابن أبي طي: «وفيها (٥١٤ هـ) صار ابن تومرت إلى مراكش مدينة أمير المسلمين، وكان دخل قبل دخول مراكش مدينة «المهدية»، وأنكر فيها أشياء ومال إليه قوم من وجوهها، فأمرهم أن يبنوا قصرا على..... وأن يعبدون الله فيه بالنكرة، فاجتمع مشايخ المهديّة وفقهاؤها وعزموا على بناء ما أمرهم به والعبادة فيه بالنكرة، فقام إليهم رجل من كبار الفقهاء فقال: يا قوم نقيم ما أقمنا بالمهدية ونحن أهل العلم والدين يرجع إلينا الناس في الفتاوى ويحيى رجل بريرى مصمودى فياء مرنا بالعبادة بالنكرة فتجيبه إلى ما ذكر، ونقبل ما أمر ونسارع إلى قبول قوله وأنكر على الناس فعادوا عما كانوا عزموا عليه وأبطلوه»<sup>(٢)</sup>.

ثم ختم ابن أبي طي كتاباته عن تنقلات ابن تومرت في بلاد المغرب بذكر وصوله إلى بجاية فقال: «ثم صار إلى بلد تعرف «بجاية» في أيدي «بنى حماد» من «صنهاجة»، وشرع ينكر على أهله شرب الخمر وكسر أبينتها، وساعده على ذلك.... صاحب البلد وحمل إليه مالا فلم يقبله وأظهر الزهاد والتعفف. ثم صار إلى بلد «أغمات» وأظهر فيه الزهد. و تدرّس الفقه، وصار معه من المصامدة تقدير «أربعمائة» رجل، ثم صار إلى مراكش بعد ذلك يعنى في سنة أربع عشرة هذه السنة»<sup>(٣)</sup>.

ولم يصلنا بعد ذلك من كتابات ابن أبي طي عن عهد ابن تومرت سوى روايته عن

(١) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٩٤؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٧؛  
النويري: المصدر السابق، ج ٢٤، ص ٢٧٨؛ الزركشي: المصدر السابق، ص ٤؛ السلاوي:  
المصدر السابق، ج ٣، ص ١٣.

(٢) ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٢، ورقة ٤٢.

(٣) ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٣، ورقة ٢١.

المعركة التى اشتهرت بموقعة البحيرة فى عام ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م، التى دارت بين قوات دولة المرابطين وابن تومرت وانتهت بهزيمة قوات ابن تومرت، وقد أحد أهم رجاله فى هذه المعركة وهو «عبد الله الونشريسي»، الذى اختلفت الآراء حوله فالبعض ذكر أنه قتل ومنهم ابن أبى طى<sup>(١)</sup>، والبعض الآخر ذكر انه فقد<sup>(٢)</sup>، أما عبد المؤمن بن على فقد نجا مع عدد يسير من قواته.

قال ابن أبى طى: «أرسل أبو عبد الله بن تومرت «أبا عبد الله الونشريسي» وهو البشير فى عشرة آلاف فارس إلى جهة مراکش وكان أمير المسلمين قد جمع عساكره حول مراکش وبقى ابن تومرت فى الجبل فى..... وخادم كان معه يقال له.... وكان.... ولما حصل الونشريسي مقابل عساكر مراکش اندفعوا بين يديه، ووصل قلب أمير المسلمين من هول عظيم فلم يأذن لجيوشه فى قتاله، وأن بعض أمرايه ركب و حمل بغير إذن أمير المسلمين فكسر طرف عسكر ابن تومرت فركب أبو عبد الله الونشريسي وركب معه عبد المؤمن فقاتل البشير فقتل. وانحاز الناس إلى عبد المؤمن فدخل إلى بستان وعمل السيف فى أصحابه وكان يوما صايفا فعادت... وقد كلت. ولقى أمير المسلمين رجلا من التجار وقد دخل البلد فقال له التاجر: ألا أدلك على مكان عبد المؤمن هو فى المكان الفلانى، فأرسل أمير المسلمين رجاله جميعا و قال لهم: أحدقوا بالمكان الفلانى فإن عبد المؤمن فيه إلى الصباح و لا تناموا، فجأوا حتى أحدقوا بالمكان فضرب الله على أذانهم فناموا جميعا، فخرج عبد المؤمن ومن معه حتى لحقوا... وهى أقرب مدينة إلى الجبل، وأصبح أمير المسلمين فأرسل خلف عبد المؤمن فاتهزم منهم، وكان العسكر لحق عبد المؤمن.... إليه بعض قرابى أمير المسلمين يقال له عمر بن..... به فرسه فى سطح فقتله بعض أصحاب عبد المؤمن فاشتغل به العسكر فنجا عبد المؤمن وأصحابه إلى الجبل، وصار إلى.... مدينة بنى أبى عبد الله، وعظم أمر عبد المؤمن عند أبى عبد الله المهدي ابن تومرت، وكان معجبا

(١) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٩٨؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٤، ص ٢٨٨.

(٢) ابن القطان: المصدر السابق، ص ١٦٠؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٢٩.

به، وكان... أنشد:

.....

السن ضاحكة والكف مانحة والصدر متسع والوجه منبسط»<sup>(١)</sup>.

ثم ذكر ابن أبي طي بعد ذلك وفاة ابن تومرت في عام ٥٢٢ هـ، وهذا التاريخ لم يوافقته فيه سوى «ابن خلدون»<sup>(٢)</sup>، بينما ذكر معظم المؤرخين أن وفاته كانت في ٥٢٤ هـ بعد موقعة البحيرة بعدة أشهر<sup>(٣)</sup>، وعند ذكر ابن أبي طي خبر الوفاة ذكر تفاصيل أخرى عن موقعة البحيرة انفرد بها.

قال ابن أبي طي: «في حوادث سنة اثنتين وعشرين وخمسةائة: «وفيها مات «أبو عبد الله بن تومرت» صاحب الدعوة بالمغرب، وكان «أبو عبد الله قد أرسل جيشا، وقدم عليه «عبد المؤمن» إلى قتال صاحب مراكش.

وكان جيشا عظيما لم يترك بعده عنده من أصحابه أحد، وبقي وحده بالجبل، واتفق ان كبس عبد المؤمن وقتل أكثر رجاله، واتصل الخبر بأبي عبد الله، وكان وعد أصحابه بملك مراكش، وأخذ أمير المسلمين فيقال أنه قال للدباغ قم فاقتلني فجلس على وجهه حتى مات». ثم قال: «لما بقي وسنار الدباغ غلام المهدي محمد بن تومرت... ونعى إليهم المهدي، قال لعبد المؤمن: مد يدك أبايعك، فمد يده فبايعه، وسلم عليه بإمرة المؤمنين وبايعه الناس بعده»<sup>(٤)</sup>.

ثم قال ابن أبي طي: «في حوادث ٥٢٤ هذه السنة أن عبد المؤمن نزل على مراكش في

(١) ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٣، ورقة ٢١.

(٢) المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٢٩.

(٣) ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٥، ص ٥٣؛ الزركشي: المصدر السابق، ص ٧.

(٤) ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٣، ورقة ٢٢.

ماية ألف فارس وتسعين ألف راجل، وذلك بعد أن خرج إليهم أمير المسلمين «على بن يوسف بن تاشفين» في جملة كثيرة من عسكره ورعية البلد ووقفوا خيالهم على تعبئة، و كانوا على باب من أبواب مراکش يقال له «باب الصالحة».

ولما اصطف الناس للحرب تقدم جماعة من رجال مراکش وسألوا أمير المسلمين أن يأمرهم.... يستعينون بها على الحرب فأمر لهم بها، وأخرج لهم منها أحمالا كثيرة ووضعت خلف العسكر، وقيل للناس خذوا..... فظنت «المصامدة» أصحاب «عبد المؤمن» أن القوم قد انكسروا، وأنشدوا عليهم وأوصلوا الضرب والطنع إليهم. فكانت الهزيمة على أمير المسلمين وتشعث جيشه.

وطلبت الرجاله أبواب البلد وازدهموا في باب يقال له «باب الشريعة»، فهلك فيه خلق عظيم بالزحمة والسيف، وانتهت هزيمة اليوم إلى موضع يقال له موضع «أم ربيع» على ثلاثة أميال من مراکش لا يدرون ما يصنعون، ولم يكن معهم إلا طبل واحد مربع فجعلوا يضربونه ثلاثة أيام ثم انصرفوا عايدين حتى وصلوا إلى بحيرة تعرف..... على ضفة واد يقال له..... مقابل باب إيلان فأقاموا هناك خمسة وأربعين يوما.

وفي مدة إقامة المصامدة بالبحيرة المذكورة آتاهم مدد من الجبال تقويت به أنفسهم، فلما أصبحوا أقدم عليهم خمسمائة فارس من «سجلماسة» وكانت بينهم وبين المصامدة حرب قتل فيها من المصامدة جماعة كثيرة، ثم انهزم الباقون.... إلى البحيرة، فلحقهم الخيل قبل دخولهم البحيرة، فتواقفوا هناك فقتل منهم أيضا جملة أخرى، ثم دخلوا البحيرة معتصمين..... ودغايرها، وقد بقوا في مقدار ثمانين فارسا ومعهم عبد المؤمن، وكان راكبا على حصان له.... وييده عدة من الحراب، فوقف على باب البحيرة فصد الناس عن دخولهم خلف المصامدة.

ونزل أمير المسلمين حول البحيرة، وجعل المصامدة يقاتلون من وراء الشجر إلى وقت الزوال. وهبت الرياح فأثارت غبارا شديدا، وهو عادة تلك البلاد، فرجع أمير المسلمين

إلى مراکش، ولما جن الليل على المصامدة هدموا حايط البحيرة وخرجوا منها إلى موضع يقال له.....، فتلقاهم هناك أهل إيلان، وبلغ ذلك أمير المسلمين فأمر باتباعهم، وانهد إليهم عسكريا كثيفا، وقدم عليهم رجلا من..... يعرف.....، فلما وصل إلى «بو عمروش» رماه احد المصامدة بحربة قتله، ورحلت المصامدة.... في لحف الجبل، ووصلوا إلى سلمية<sup>(١)</sup>.

### فتوحات تقي الدين عمر في المغرب

اهتم ابن أبي طي في كتاباته عن سيرة السلطان صلاح الدين بتتبع أخبار فتوحات الدولة الأيوبية في بلاد المغرب. وقد انفرد ابن أبي طي بمعظم ما ذكره عن هذه الفتوحات، وتعد كتاباته عن هذا الموضوع من أوائل الكتابات في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، وقد لاحظنا ذلك من خلال مقارنة نصوص كتاباته مع غيره من المؤرخين المعاصرين له، وهذا زاد من صعوبة تحقيق كتاباته ومعرفة مصادره، وقد تبين لنا أن كتاباته عن هذا الموضوع كانت أساسا لكتابات كل من ابن كثير، والمقرئزي بعد ذلك<sup>(٢)</sup>.

بدأ ابن أبي طي كتاباته بتوضيح تفاصيل غزو «بهاء الدين قراقوش» برقة، وقد لاحظنا أنه لم يكن دقيقا عندما ذكره أن بهاء الدين قراقوش هو الذي قام بفتوحات المغرب، حيث كان بهاء الدين من كبراء الأمراء في دولة صلاح الدين، فهو الذي قام ببناء سور القاهرة وقلعة الجبل كما أوضحنا في ترجمته في الفصل الخاص بتاريخ الدولة الفاطمية، أما قراقوش المذكور هنا فهو «شرف الدين قراقوش» مملوك - «تقي الدين عمر بن أخى صلاح الدين» - وكان قراقوش من الأرمن ويقال له المعظمي والناصرى<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٣، ورقة ٢٢-٢٣.

(٢) انظر: (ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٨١٩؛ المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٦٠، ٦٣-٦٤، ٦٧).

(٣) ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٤، ص ٩١-٩٢؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٦، ص ١٩٢؛ المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٦٣.

قال ابن أبي طي عن مسير قراقوش إلى برقة في عام ٥٧١ هـ: «ولما ملك شمس الدولة اليمن سمت نفس ابن أخيه «تقى الدين» إلى الملك وجعل يرتاد مكانا يحتوي عليه، فأخبر أن قلعة «ازبري» هي قم درب المغرب، وكانت خرابا فأشير عليه بعمارها، وقيل له متى عمرت وسكنها أجناد أقوياء شجعان مُلكت «برقة»<sup>(١)</sup>، وإذا مُلكت برقة مُلك ما وراءها. فأنفذ مملوكه «بهاء الدين قراقوش» وقدمه على جماعة من أجناده ومماليكه، فصاروا إلى القلعة المذكورة وشرعوا في عمارتها. واجتمع بقراقوش رجل من المغرب فحدثه عن بلاد «الجريد» و«فزان»<sup>(٢)</sup>، وذكر له كثرة خيرها، وغزارة أموالها، وضعف أهلها، ورغبة في الدخول إليها. فأخذ جماعة من أصحابه وسار في حادي عشر المحرم من هذه السنة، فكان يكمن النهار ويسير الليل مدة خمسة أيام، وأشرف على مدينة «أوجلة»<sup>(٣)</sup>. فلقبه ملكها وأكرمه واحترمه، وسأله المقام عنده ليعتضد به ويزوجه بنته ويحفظ البلاد من العرب، وله ثلث ارتفاعها. ففعل قراقوش ذلك فحصل له من ثلث الارتفاع ثلاثون ألف دينار، فأخذ عشرة آلاف دينار لنفسه وفرق على رجاله عشرين ألفا»<sup>(٤)</sup>.

ثم قال ابن أبي طي: «وكان إلى جانب أوجلة مدينة يقال لها {الأرزاقية}<sup>(٥)</sup>، فبلغ أهلها صنيع قراقوش في أوجلة وأنه حرس غلالهم، فصاروا إليه ووصفوا له بلدهم وكثرة خيرها وطيب هوائها، ورغبوه في المصير إليهم على أنهم يملكونه عليهم. فأجاب على ذلك، واستخلف على أوجلة رجلا من أصحابه يقال له «صباح» ومعه تسعة فوارس من أصحابه، فحصل لقراقوش أموال كثيرة. واتفق أن صاحب أوجلة مات، فقتل أهل أوجلة

(١) بَرَقَة: اسم صُقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية. (ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٨٨).

(٢) فزان: ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس الغرب. (المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٦٠).

(٣) أَوْجَلَة: مدينة في جنوبي برقة نحو المغرب. وأوجلة اسم للناحية واسم المدينة «ارزاقية» نفسه، ج ١، ص ٢٧٦).

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٦٥-٦٦٦.

(٥) في طبعة «دار الجليل». «الأرزاقية». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٦٠).

أصحاب قرقوش، فجاء قراقوش وحاصرها حتى افتتحها عنوة وقتل من أهلها سبعمائة رجل، وغنم أصحابه منها غنيمة عظيمة، واستولى على البلد. ثم إن أصحابه رغبوا في الرجوع إلى مصر وخشى قراقوش أن يقيم وحده فرجع وحده فرجع معهم. فلما حصل بمصر طاب له المقام وثقل عليه العود، وزوجه تقى الدين بإحدى جواريه. وكان استناب بأوجلة وقال لأهلها: أنا أمضى إلى مصر لتجديد رجال وأعود إليكم»<sup>(١)</sup>.

قال ابن أبي طى عن أخبار قراقوش في عام ٥٧٢ هـ: «وفيها رجع قراقوش إلى «أوجلة» و تلك البلاد، فجمع أموالا ورجع إلى مصر، ثم أراد الرجوع فمنعه «العادل»، ثم خلصه «فرخشا» فرجع وفتح بلاد «فزان» بأسرها»<sup>(٢)</sup>.

ثم عرض ابن أبي طى تفاصيل اتجاه قرقوش نحو مدينة طرابلس في عام ٥٧٥ هـ فقال: «وفيها خرج قراقوش التقوى «إلى» طرابلس المغرب «فتفتح بلادا

وصلى حروبا مع «إبراهيم السلاحدار» الذى دخل بلاد المغرب أيضا من أصحاب تقى الدين، لأن نفسه أطمعته أن يفعل فعل قراقوش في تملك البلاد، ثم أصلح بينهما»<sup>(٣)</sup>

ثم عرض ابن أبي طى في أحداث عام ٥٧٦ هـ تفاصيل اتجاه قراقوش نحو مدينة قابس فقال: «وفي هذه السنة سافر قراقوش التقوى إلى «قابس»، فذكر محاصرته لجملة من القلاع، وقتله جماعة من البربر، ومما ذكره أنه أسر جماعة على حصن وأمر بقتلهم، وفيهم صبي أمرد، فبذل فيه أهل القلعة عشرة آلاف دينار على ألا يقتله فأبى، فزاودوه إلى مائة ألف فأبى وقتله، فما استتم قتله حتى نزل شيخ من القلعة ومعه مفاتيحها وقدمها لقرقوش، فسأله عن الخبر، فقال: هذا الصبي الذى قتلته ولدى ولم يكن لى سواه، ولأجله كنت أحفظ هذه القلعة فلما قتلته علمت إن بقيت هذه القلعة فى يدي ومت صارت إلى

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٦٦٥-٦٦٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٩٢.

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ٤٦.

أولاد أخى وأنا أبغضهم، فرده إلى القلعة وأخذ منه أموالاً»<sup>(١)</sup>.

ثم تناول ابن أبي طي تفاصيل اتجاه قراقوش نحو إفريقية في عام ٥٧٦ هـ أيضاً فقال: «فيها سار قراقوش التقوى إلى إفريقية فأوغل في بلادها وانتهب ما قدر عليه، و حارب عسكر «ابن عبد المؤمن» «بالقيروان». ثم بلغه أن إبراهيم السلاح دار احتوى على أهل قراقوش وبلده، فرجع إليه فهرب إبراهيم وسار إلى خدمة ابن عبد المؤمن، وملك قراقوش ما كان بيد إبراهيم»<sup>(٢)</sup>.

(١) المصدر نفسه، ص ٨١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٤.